دور الحج وقوافله فى أسلمة غرب إفريقيا

د. أيمن السيسي

مقدمة تمهيدية

لم يفكر أحدنا عند أي نقطة جغرافية كانت حدود العالم الإسلامي ستتوقف لو لم يشَّرع الله الحج كأحد أركان الدين، خصوصاً بعدما هدأت حركة الفتوح الإسلامية في منطقة الغرب الإسلامي، ولم تتجاوز بعض المناطق فى صحراء صنهاجة التى طرقتها طلائع الفتح بقيادة حبيب بن أبى عبيدة بن عقبة ما بين عامى ١١٦-١١٧هـ/٧٣٥م، إلا أنها لم تؤد إلى أسلمة السكان بشكل كامل، وإن تحدثت المصادر عن سرايا عربية بعد ذلك انطلقت من السوس باتجاه الصحراء، منها غزوة القائد العربي المشتري بن الأسود.[١] لكنها لم تتوسع أو تؤد إلي رسوخ الإسلام، فظل هشاً فى المناطق التى طرقها لأنه لم يتوطن فيها بشكل جذرى، ولم يتم تعميق الأسلمة بين الصنهاجيين، وإن عدتهم المصادر في عداد أهل السنة ضمن الإشارات القليلة.[٢]

ظل الحال متأرجحاً، والإسلام هشاً في هذه المناطق، وظلت صحراء صنهاجة على نصيبها "الإطاري" من الإسلام الذي لم يكن سوى الشهادتين، وهو ما عبر عنه يحيى ابن إبراهيم الجدالي: "ما عندنا فى الصحراء من هذا – يقصد ما رأى من الإسلام – سوى الشهادتين". وتلك المقولة وقائلها ورحلته كانت الحد الفاصل بين إسلام هش غير منتشر، وبين حضارة إسلامية ازدهرت على مدى قرون، وانتشرت جنوباً وشرقاً، وذلك بسبب الحج.

وكان للحج دوره فى إنشاء المدن "المقدسة" وإنعاش اقتصاد ما، وكذلك المدن التى تمر بها قوافله، بل وساهم فى نقل حركة التجارة والمبادلات والبيع من الاقتصاد الشفاهي فى هذه الصحراء إلى الاقتصاد الكتابي المنظم، حيث لم تعد المبادلات التجارية بين التجار والمناطق معتمدة فقط على نزاهة التجار وشهود التجارة ولا طول أعمارهم وقوة ذاكرتهم بل أصبح لها شروط موضوعية للتعامل، سندها الوثيقة المكتوبة طبقاً للشروط المعمول بها شرعاً[١]. فأصبح التعامل بواسطة الصكوك والعقود خصوصاً مع ازدياد الصفقات التجارية نتيجة لأمرين:

الأول: زيادة أعداد التجار رفقة قوافل الحج.

الثاني: زيادة وتنوع البضائع.

أسهم الازدهار الذي شهدته المدن التجارية نتيجة الفائض التجاري والفقهي في خلق طبقة جديدة من النخب العلمية التي ازدهرت بها الثقافة العربية الإسلامية عملت على نشر الإسلام وتحقيقه كاملاً. وليس ثمة شك فى أهمية الدور الذي لعبته قوافل الحج والتجارة فى هذه الحواضر خصوصاً بعد ازدهار هذه التجارة بما سمح بتطور حياة البدو من نمط البداوة المرتحلة دوماً إلى الاستقرار الدائم والاستعاضة عن وجود سلطة مركزية تحفظ الأمن بدور الحجاج من الفقهاء والشرفاء كجماعة للحل والعقد فى مواجهة سلطان القبائل المحاربة.

وحملت تجارة القوافل مؤثرات مكنت صهر الزنوج الوثنيين والبربر فى الحضارة الإسلامية بلسان عربي سليم، وهو ما تشهد عليه عشرات الآلاف من المخطوطات العربية فى كل الحواضر الصحراوية فى غرب إفريقيا وجنوب الصحراء الكبرى بما أسهم فى تجذير الإسلام وخلق حياة ثقافية متميزة عمل على الحفاظ عليها وازدهارها فائض اقتصادى وتراكم ثروات أوجدته هذه القوافل أدى إلى انصراف بعض سكان هذه الحواضر إلى الدراسة والتعلم، وهو ما أوردت العديد من المصادر للدلالة عليه كماً كبيراً من المخطوطات العربية التى وصلت مع تجارة القوافل.[١]

بداية التجذير الحقيقى للإسلام نتيجة رحلة حج:

تجمع الروايات المتعددة بأن ابتداء حركة المرابطين تعود إلي الحج "حجة زعيم صنهاجة" يحيى بن إبراهيم بن ترجوت، حيث عرج فى مقفلة من حجه على القيروان، وفيها لقي شيخ المالكية أبا عمران الفاسي (توفى ٤٣٠هـ/١٠٣٩م)، فطلب منه أن يرسل معه أحد تلاميذه ليعلم قومه فى الصحراء واجباتهم الدينية التى يجهلونها، فنصحه بالتوجه إلى وجاج بن زلو السوسي، حيث اصطحب تلميذه عبد الله بن ياسين الذي أبدى حماسه للرحلة وأهدافها.

واستطاع ابن ياسين تحقيق مشروعه التعليمي النهضوي التوحيدي الذى أنتج قيام دولة المرابطين.

وذهب القاضي عياض (توفى ٥٤٤هـ) إلى أن الذي اصطحب عبد الله بن ياسين هو الجوهر بن سكن، وهو نفس قول ابن الأثير بقوله "مر به رجل من جزوله يعرف بالجوهر بن سكن منصرفاً من الحج، فرغب إلى (وجاج بن زولو)، أن يوجه معه رجلاً من طلبته ليعلم قومه الدين. وأيا ما كان اسم المصطحب لابن ياسين، يحيى بن عمر أو الجوهر بن سكن، فإن الكل أجمع على أن يحيى كان قافلاً من الحج وهو ما يهمنا.

ولا خلاف عند أحد حول ما كان للحركة المرابطية التى حدثت على يده ثم أبو بكر بن عامر، وبتوجيه الداعية عبد الله بن ياسين من نتائج بعيدة المدى على المجتمع والثقافة فى غرب إفريقيا حيث قضت على البدع وبقايا الوثنية. ووحدت العقيدة فى المذهب المالكي الذي نشره المرابطون، والأهم إنشاء سلطة شرعية إسلامية، هى دولة المرابطين فى الشمال وفي الجنوب بفكر جديد قابل للاستثمار والاسترشاد فى العصور التالية، حتى ولو فى شكل إمارات متباعدة ومتفاوتة التوجه والقوة، أهمها إمارة الإمام ناصر الدين.

وما يهمنا هنا هو تأثير الحج فى نشر الإسلام على نطاق أوسع ومحاربة ما خلط به من طقوس وثنية، وهو ما تؤكده معركة أبي بكر بن عامر اللمتوني (٤٦٨-٤٨٠هـ) (١٠٧٥-١٠٨٧م)، التي توفي فيها فى تكانت شرق موريتانيا مع وثنيي السودان[١]، وقام المرابطون بحروب شعواء ضد المجموعات البدعية خاصة فى سجلماسة، ثم توجهوا لفتح بلاد السودان، والقضاء على الوثنية ونشر الإسلام فيها، ففتحوا غانا وخربوا أودغست. يقول القاضي عياض: "واستقامت للمرابطين الصحراء بجملتها وما وراءها من بلاد المصامدة والقبلة والسوس ثم جهاد برغوا طه الكفرة".

دور الحجيج فى تأسيس مدن العلم

عرف المجتمع الموريتاني المدن القديمة كمحلات عمرانية وإن لم تتمتع بتوفر الشروط الفعلية للمدن مثل ودان وولاته، وشنقيط، وتشيت، لكنها سُميت بـ"مدن العلم" في موريتانيا، نتيجة تكونها محطات قوافل استقطبت كثيراً من العلماء والفقهاء الذين استفادوا من الوصول إليها بحركة القوافل وحراسة الطرق إليها، وتوفر الماء على طول

محطاتها، أو بسهولة تلقيهم عبر هذه القوافل للمخطوطات والعلماء المحمولين من بلاد العلم.

وتؤكد روايات تأسيس هذه الحواضر الارتباط بالمجموعات الدينية بحكم كونها المجموعة القبلية المختصة بالخطط الدينية والثقافية فى المجتمع الصحراوي والناشطة فى حقل التجارة[١]، وارتبط تأسيسها بالحج والنفوذ الروحي للفقهاء الحجاج مثل "يحيى فى ولاته، وغيره من الحجاج فى المدن والحواضر الأخرى.

إلا أن الدارسين والرحالة خلال القرن العشرين أطلقوا عليها (مدن القوافل)، وهو ما يهمنا فى بحثنا هذا لدور قوافل الحج تحديداً فى إعمارها وجعلها منارات للعلم. وربما جاء هذا التوظيف لمصطلح (مدن) للاستخدام الدلالي على الدور الهام الذى لعبته هذه القصور خصوصاً وأنها خاضت ووظفت الفائض التجاري للطقس المقدس، فأمست القوافل مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بركب الحج وطقسه، سواء فى معناه ودلالته الحرفية كحمل الحجاج أو فى دلالته الوظيفية بحمل أدوات نشر الإسلام فقيهاً أو كتاباً أو إجابات فقهية على أسئلة شرعية حول النوازل أو إشكاليات المجتمع المسلم فيها.

وإن افترض البعض أن تطور هذه القصور وتحولها إلى محطات قوافل قد يكون حدث على إثر إنقشاع حالة الفوضى الأمنية التي سادت كامل بلاد المغرب خلال القرنين الخامس والسادس الهجري (١١ و ١٢ ميلادي)[٢]، فإن الباحث يرى أن الافتراض الأقرب للدقة هو اكتمال التحول المنهجي لتجذير الإسلام وتحول القبائل المؤسسة لهذه الحواضر والكائنة فى نطاقها من إسلامها السطحي الهش والمختلط بكثير من الوثنيات إلي مذهب أهل السنة بالتحول إلى المالكية على يد عبد الله بن ياسين الذى اصطحبه أحد الحجاج إلى بلاده (صحراء صنهاجة) لتعليم أهلها صحيح الإسلام بعد أن اصطدم فى رحلة الحج (طقوساً وعودة) بإسلام أعمق وأهدى سبيلاً من الذي تعرفه صحراؤهم.

الحج وتأكيد النسب الشريف:

وإذا بحثنا لابد أن يثور تساؤل أو تفجره حركة التكوين السوسيولوجي واللغوي والعرقي، وهو تأثير حركة النسب فى التكوين الديموغرافي والتحول اللساني (اللغة)،

والعرقي (الانتحال أو التلاحم) فى هذه المناطق، حتى تجسدت فى القبائل الحسانية المعقلية، مادامت تعلقت بالنسب الجعفري الزينبي.

وتشيع فى مروياتهم أن جدودهم وصلوا مع أبى بكر بن عامر عند عودته للصحراء. وقد يكون صحيحاً ما ذهب إليه بعض المؤرخين والكتاب فى تحليل التهافت على تأكيد النسب والإلحاح عليه بـ"انتشار أيديولوجيا الشرف لاعتبارات تتعلق بأزمة الشرعية في الصحراء.[١]

إلا أن الباحث يرى أن هذا السبب وإن انتشر أو ساعد على تفشيه الرغبة فى تأكيد الشرعية استناداً إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم "الأئمة من قريش"، وهو ما وضح جلياً فى بناء دولة الأدارسة، وحتى انتحال الفاطميين للنسب الشريف إلى غيرهم فى مواجهة النسب القرشي (الأموي). فإن مرد هذا الانتحال والتهافت فى أقوى أسبابه هو السيادة على العناصر غير العربية من الزنوج بمختلف انتماءاتهم القبلية نتيجة تغيير المناخ الطبقي والتراتبي فى هذه المنطقة ببزوغ شمس الإسلام عليها على يد فاتحين بقوة السيف، أو تجار بترف الغنى وحسن المظهر والهندام ورقي الأخلاق أو علماء وفقهاء تمتعوا بوضع مادي وأدبي استثنائي لدى الملوك والأمراء والسلاطين بحكم تأثيرهم، حتى أن العرقيين (أمازيغ صنهاجة وتكرور) عمدوا إلى تجذير أصولهم فى العرب ليفوزوا ببعض الشرف ويكتمل بانصهار الأول فى العرب، وتأكيد نسبهم الحميري ثم القرشية بشكل يساير التسلسل الزمني (قد يكون) معبراً عن تطور الأيديولوجيات العصبية بشكل يجعل المعيار النسبي أهم محددات المكانة الاجتماعية طبقاً للتصنيف الوظيفي، وكان الحج وقوافله حامل هذا النسب.

إكمالاً للتشكيل السلالي وربطه مع مهمة هذا المدن وإشرافها على طرق القوافل، وكان أداء الحج تأكيداً للسيادة واكتساب الشرعية الاجتماعية للأجداد المؤسسين لها، باستثناء ودان التى تُصرح بعض روايات تأسيسها باسم علي الصنهاجي كأحد مؤسسيها.

ليس ثمة شك في ارتباط هذه الحواضر جميعها في تأسيسها – الثاني – بالحج، ورغم ما تعج به أغلب روايات التأسيس بما يمكن القول إنه أساطير، إلا أن بينها حقيقة مهمة تؤكد دور الحج في هذا التأسيس، حتى وإن غلفت عمليات التأسيس الروايات

الأسطورية، إلا أنها – كما يرى الباحث – جاءت لإضفاء البعد الديني الروحي سواء على شخصيات المؤسسين أو على طريقة التأسيس، ارتباطاً بالحج، ويظهر جلياً في مختلف هذه الروايات ديمومة المقدس وخدمته برعاية طرق القوافل وتهيئة المدينة كمحطة لها مما حوَّلها إلى مسرح لكرامات الأولياء تضفي على التأسيس طابع القداسة.

حيث كان المؤسس – غالباً – عائداً من الحج، أو لأن هذه المدينة أصبحت محطة لقوافل الحج والتجارة ، فكان لابد أن ترتبط شعائر الإسلام بحركة التأسيس، بما أدى إلى تراجع المدن القديمة بين المغرب والسودان جنوب الصحراء لصالح إزدهار طرق الحج الجديدة.

ويبدو أن ظهور النسب الشريف سواء بالحقيقة أو الانتحال – في أغلبه – جاء لإضفاء الشرعية، وبالتالي ضمان علو المكانة الاجتماعية والسياسية، وحتى كما يرى بيير بونت أن تغيير بنية الأنساب شكلت منعطفاً مهماً في تطور تمثل المجتمع الصنهاجي للإسلام. وهو ما يراه الباحث تراكماً كمياً ونوعياً عجل بتصفية الجيوب البدعية والوثنية لصالح التحول إلى الإسلام الكامل.

وإن كانت الروايات فى المصادر الأولى لتواريخ تأسيس هذه المدن تتجاوز إعمارها البشري الأول على أيدي القبائل الصنهاجية[1]، فهي ليست – في نظر الباحث – قطيعة متعمدة من الرواة، كما ذهب مؤرخو موريتانيا المحدثون مثل الدكتور أحمد مولود ولد أيده الهلال، والمختار ولد السعد، وحماه الله ولد السالم، إنما هي اتساق واضح مع الدور الذي لعبته هذه الحواضر كمحطات لقوافل الحج نظمتها وحمتها على طول الطريق قبائل عربية بعضها بالفعل يحمل النسب الشريف من مختلف أفرعه، وبعضها انتحله لتأكيد السيادة وإسباغ الشرعية. حيث أكد ذلك إكمال تعريب المجتمع الصنهاجي، وتغيير البنية النسبية استناداً إلى الارتباط بين الإسلام والعروبة. وبالتالي فقد بُنيت عمليات التأسيس الثانية على شرعية الأسماء المؤسسة المنتسبة إلى الدوحة الشريفة أو الصحابة، أو تابعين. وهذه المحاولة من طرف الرواة ومصادر تاريخ هذه الحواضر للربط بين النسب الشريف فى روايات التأسيس لاشك "محاولة مستميتة" لإضفاء شرعية اجتماعية ودينية وسياسية مع إضفاء شرعية وقداسة للموقع

مما يعزز فرص حمايتها. وشكلت ولاته نتيجة الموقع المتوسط بين بلاد المغرب والصحراء وبلاد السودان محطة مهمة للتجارة، حيث جذبت التجار العرب والبربر والزنوج، وتعاظمت قيمتها نتيجة اعتبارها محطة من محطات قوافل الحج، خصوصا بعد أن ابتدأ منها منسي موسى وإسكيا محمد رحلتيهما الشهيرتين للحج، وما بينهما من السنوات التى تحولت فيها إلى ملاذ للنخب الدينية السودانية الفارة من عسف سلاطين وحكام تمبكتو. وتشير المصادر المكتوبة فى ولاته إلى انتساب يحيى الكامل جد المحاجيب إلى موسى الكاظم، وحتى الرواية السودانية التى ذكرها المؤرخ موريس دولافوس[١]، تعزو تأسيسها إلى الحاج إسماعيل الذي وفدها على رأس بعض الأسر السونكية مع جمع من التجار العرب والبربر. فإن رواية صاحب مخطوط (مطرب العباد)[٢] يذكر أن أول من سكنها هم أبناء القاضي. وهو ما عمدت التفسيرات العربية إلى تأصيله.

ودَّان:

ومن هذه الحواضر "ودَّان" التي تعتبر من أقدم الحواضر القائمة بمنطقة أدرار حسب ما ذكره ابن أطوير الجنة، وأن أثَّر شح المصادر بالنسبة لتاريخها في رصد تاريخ التأسيس الموثق، إلا أن كل الروايات الشفهية التي نقلها البعض ومنهم أحمد ابن أطوير الجنة (توفى ١٢٦٥هـ/١٨٤٩م)، وكان أحد فقهائها المهتمين بالتدوين وما سبقه من تسجيل تاريخ التأسيس أو الظهور، وما أورده الباحث الألمانى ريجنر أوزفالد من النص الأصلي لتاريخ محمد بن محمد البشير القلاوي الذي تحدث فيها عن تاريخ تأسيس ودان عام ٥٣٦هـ.

وتجمع المصادر على رواية واحدة لتأسيسها على أيدي ثلاثة حجاج يمثلون أجداد بطون "إدو الحاج"، وهم الحاج عثمان، وهو عثمان بن محمد اللبان بن يحيى الأغماتي، والحاج يعقوب بن يحيى بن علي بن دومان من سلالة عقبة بن نافع، والحاج علي الذي ينتهي نسبه إلى الأمير يحيى بن عمر اللمنوني، وانضم إليهم رجل

رابع هو عبد الرحمن الصائم الذي تذهب بعض الروايات إلى انتسابه إلى قريش[1]، وأن هؤلاء بعد عودتهم من الحج، قرروا الاستقرار بالموقع وتأسيس المدينة، وتغرق الرواية في إبراز الحج بأنه كان يوم عرفة عام ثلو (أي سنة ٥٣٦هـ/١١٤٢م).[2]

وهناك رواية أخرى تعزو تأسيسها إلى الحاج عثمان وحده، وتذكر أنه عاد مع الشريف عبد المؤمن من مجلس القاضي عياض بعد رحلة حج[3]، واجتماع أجداد المجموعات البارزة المكونة لإدو الحاج في الحج هو فعل يمهد حسب ما يستشف منه لخلق واقع جديد ويستمد من الحج قوة الانتقال من طور إلى آخر.

تيشيت:

وتقع حاضرة تيشيت بمنطقة "تكانت" على الطريق الرابط بين ولاته و"تمبكتو"، ويعود ازدهارها إلى نهاية العهد الوسيط ومثلت أهم الحواضر في المنطقة الصحراوية الوسطى ما بين أدرار والحوض الشرقي. وإن كانت المصادر أكثر شحاً في الإشارة إلى تيشيت، إلا أنها ترجع أيضاً تأسيسها إلى الشريف الحسني عبد المؤمن عام خمسمائة، ثم قدم إليها الحاج عثمان فبنى معه وسكنها وتوفى بها.

وتعد أبرز نموذج لامتزاج المؤثرات الزنجية والعربية، وهو ما يدعم قدرة الإسلام على صهر هذه المجموعات والدفع بها جنوباً وغرباً لإيصاله فى بلاد الوثنيين، وهو ما وجدنا صداه وتأكد من بعض المصادر مثل ابن أحمدو الصغير (إنارة المبهم) التي نقلها ولد أيده الهلال "واعلم أنه مما اشتهر أن أول من بدأ فى بناء تيشيت هو الشريف عبد المؤمن بن صالح، وارتحل معه صاحبه الحاج عثمان المشهور المدفون بمسجد تيشيت فصرفا همتهما إلى التوجه إلى بلاد التكرور"[1]، وذهب إليه ددود ولد

---

[1] المصطفى بن أحمدان، مساهمة فى كتابه تاريخ ودان منذ نشأتها وحتى القرن ١٨، نشر خاص، نواكشوط، ١٩٨٥، ص١٣١.

[2] المصدر السابق، ص١٢٥.

[3] محمد فال ولد بابه، التكملة فى تاريخ موريتانيا، تحقيق أحمد بن الحسن، بيت الحكمة، تونس، ١٩٩٢، ص٦١.

[1] أحمد مولود ولد أيده الهلال، مدن موريتانيا العتيقة، مركز الدراسات الصحراوية، نواكشوط، ٢٠١٤، ص٢١٧.

عبد الله افتراضاً من أن الشريف عبد المؤمن بن صالح مؤسس تيشيت قد يكون منحدراً من سلالة أشراف آل صالح بن الحسن الذين ذكر الإدريسي (فى نزهة المشتاق ص٢٢-٢٣) أنهم أخضعوا مملكة غانة الوثنية استناداً إلى احتفاظ الذاكرة السودانية حتى الآن باسم شخص يدعى صالح سواري[2]، والذي تذكر الروايات الشفهية والتي سمعها الباحث بنفسه – زيارة إلى تيشيت فى ٨ فبراير ٢٠١٦ – تذكر أنه وفر الحماية للنازحين من بطش قبائل الصوصو فى "كومبي صالح" وكانت تمثل الشطر الإسلامي من مدينة غانة.

كما أن رواية قبيلة ماسنة في تأسيس تيشيت تقول إن شيخاً ضريراً يدعى الأمين بن الحاج حسب رواية دونها تيودور مونو، وصل لموقع تيشيت قادماً من غانة وتُذكر إحدى الروايات أنه كان عائداً من الحج يرافقه بعض أتباعه، ويفترض محمد ولد مولود أن هذا الرجل ربما قدم إلى تيشيت عبر أودغست ضمن النشاط التجاري للقوافل.

شنقيط:

شنقيط هي الحاضرة الصحراوية التي صارت علامة على كل حجاج وفقهاء صحراء الملثمين – موريتانيا الحالية – ساهم في شهرتها بروز جماعات كثيرة من الفقهاء الذين حملتهم قوافل الحج ذهاباً وإياباً بعد أن تزودوا من العلوم الفقهية، ومنهم من اعتلى كراسي التدريس فى جامعات الإسلام المزدهرة مثل الأزهر، ومنهم من جاور فى الحرم معلماً، وإن لم يكن بعضهم من شنقيط فعلياً، ولكن لوجوده فى ركب الحج الشنقيطي اعتبر شنقيطياً، ولهذا احتلت شنقيط في الذاكرة الإسلامية منزلة مبالغ فيها، ليس فقط مقارنة بباقي الحواضر الموريتانية" وإنما على مدى الغرب الإسلامي كله.

ولعل أقدم إشارة إليها هي ما وردت في كتاب تاريخ السودان للسعدي، ذكر فيها: "أما أكل سلطان (الطوارق) فقد بقي أيام سلطنته (٨٣٦هـ/١٤٣٣م) على حالهم القديمة من سكنى البراري، وفوض أمر البلد إلى تنبكت كي محمد نفي (محمدنا الله)،

[2] ددود عبد الودود بن عبد الله، الإسلام والمجتمع فى إفريقيا الغربية، ص١١.

وهو صنهاجي من قبيلة أجر أصله من شنقيط"[1]، وعلى هذا فإن شنقط كانت موجودة قبل القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، وقيل عام ٦٦٠هـ/١٢٦١م. وبالقفز على اختلاف الروايات حول زمن التأسيس الذي لا شك كان أبعد من ذلك كثيراً. أما المهم في روايات تأسيسها، فهو ما قال: "جاء علي يحيى الذي يصل نسبه إلى الطاهر بن الغيث بن زكرياء بن محمد الحنفية بن علي بن أبي طالب ...".

وإن لم تنص الروايات صراحة على عودة المؤسس لشنقيط أو المؤسسين من الحج كما في روايات ودان، ورغم إيراد أسماء مختلفة إلا أنها تقترب من فكرة العودة من الحج أو تأثير الحج فى حركة التأسيس. فحسب الروايات التي حققها عدد من الباحثين، فإن علي أو عثمان المؤسس لشنقيط رجل صالح متدين قدم من شبه الجزيرة العربية، وإن حددت إحدى الروايات المدينة بأنها ينبع. فلا شك أنه وإن لم يكن حاجاً فقد التحق بركب الحج الذي كانت ينبع إحدى محطاته قبل أن ينفصل عن بلاد الحجاز كما أن أحد أبنائه سيدي الحاج عبد الرحمن، وهو ما يدفعنا مع ارتباط اسم شنقيط بركب الحج "الصحراوي". رغم شح المصادر، إلى افتراض تأثير الحج في تأسيس شنقيط. أما التأكيد فهو التأثير المباشر للحج وقوافله، ومن تحمل ذهاباً وعودة، فضلاً عن التأثيرات الفقهية ودور المخطوطات المحمولة. في حين أن عددا آخر من الروايات يعزو تأسيسها إلى محمد قل (غل) وهي الشخصية التي تمثل أكثر الوجوه التاريخية غموضاً[1]، إذ تذهب بعض الروايات أنه ووالده إبراهيم وصلا لموقع شنقيط قادمين من بلاد الرافدين.

ويرى الباحث أن شهرة شنقيط كعلامة على ركب الحج لصقت بهذه الحاضرة الحديثة نسبياً بالنسبة لجارتها أو نواتها "آبيير آلتى دون ابن حبت"، عام ١٦٠هـ/٧٧٧م، كتاريخ لتأسيسها، واستفادت أيضاً من هذا العدد الذي شكل نواة ركب

---

[1] عبد الرحمن السعدى، تاريخ السودان، دار الفكر العربى، ٢٠١١، تحقيق حماه الله ولد السالم، ص٩٥.

[1] عبد الودود ولد الشيخ، القرابة والسلطة، قراءة فى النظرية الإنقسامية، جامعة نواكشوط، ١٩٩٥، ص٥٦.

الحج خصوصاً وأن قبائل الزوايا التي عمرت شنقيط خرجت من أبيير[2]، مثل إدو على والسماسيد فى تجكانت. وقد ذكر ابن حبت "أن أبا بكر بن عامر جهز جيشاً إلى مدينة آبيير، وهى شنقيط الأولى وفيه كثير من الناس.

مؤسسات الحج وتنظيم القوافل

الدور الأكثر أهمية في خلق شبكات تجارة القوافل:

مؤسسة قوافل الحج:

لم تكن رحلة حج زعيم صنهاجة يحيى بن إبراهيم الجدالي وعودته بعبد الله بن ياسين ضمن مؤسسة حج أو قوافله، لأنها – حسب إشارات المصادر – لم تكن بهذا التنظيم الذي عرف فيما بعد، وظلت قوافل الحج ما يمكن أن نطلق عليه التدريج التكويني، حيث لم تنتظم هذه القوافل ضمن فكر مؤسسي أو أشبه إلا بعد محاولات عدة على مدى قرون، إلى أن تبلورت في نهاية القرن الثامن الهجري فى شبه مؤسسة. ومع مطلع القرن التاسع الهجري، الخامس عشر ميلادي، فوضحت ملامح هذه المؤسسة فى ركب الحج التكروري، وإن لم يكن تكرورياً خالصاً، وإنما لكون التكرور أوائل الحجاج من الغرب الإفريقي، ثم أول من نظم مؤسسة لقوافل الحج نسبت إليهم أو كمصطلح تعريفي أطلقه المشارقة على مسلمي هذه البلدان، وإن حملت حجاجاً من كل مناطق وحواضر غرب إفريقيا المسلمة. ولم تلبث ولاته إلا وقد انفصلت بركب خاص بها فعرفت طرق القوافل ركب الحج الولاتى قبل أن تسمى بلاد شنقيط وهو ما يرجع إلى أسبقية ولاته على شنقيط زمنياً وتنظيمياً لركب الحج.

ساعدها على ذلك قرب ولاته من طرق القوافل وقربها النسبي من تمبكتو التي كانت أهم محطاتها آنذاك، وإن كانت رحلات الحج الملكية رحلتي منسا موسى (٧٢٤هـ/١٣٢٤م)، واسكيا محمد (٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، أضافت إلى ركب الحج التكروري الشهرة وتأكيد الصبغة المؤسسية مما كفل له الانتظام، وعمل على إغراء

---

[2] يحيى ولد البراء، المحتوى الاجتماعى لفتاوى العلك، حوليات كلية الآداب، جامعة نواكشوط، العدد ٣، العام ٩١-١٩٩٢، ص١١٨.

الراغبين فى أداء مناسك الحج بالالتحاق بها، ووصلت أعدادها إلى خمسة آلاف حاج.

كان ركب الحج التكروري أول تسيير لقوافل الحج، مما أدى إلى اشتهار حجاج حواضر الإسلام في غرب إفريقيا وحتى كانم وبرنو فى جمهورية تشاد الحالية باسم التكرور[1]. وظل المشارقة فى مصر والحجاز يطلقون تسمية "ركب الحج التكروري" على قوافل الحج الآتية من هذه المناطق، والسبب أن أول مجموعات حجاج وصلت إلى الشرق بأعداد تكفي لتميزهم كمجموعة مستقلة قد يكونوا من إمارة التكرور. وتعامل المشارقة معهم كتكرور حتى قال المقريزى: "قدم منسا موسى ملك التكرور يريد الحج ...". وقد تعجب منسا موسى عندما نعته المصريون بملك التكرور، وقال أن التكرور إقليم من أقاليم بلاده، وابتداء من القرنين الحادى عشر الهجري، السابع عشر الميلادي، مع تبلور الحضور الفقهي وازدهار العلوم الإسلامية، وثبات المؤسسات الدينية، والخطط فى حواضر الصحراء الموريتانية، بدأ الانفصال عن ركب الحج التكروري لصالح نوع من التخصص الجهوي في تسيير قوافل للحجاج، فأصبحت ولاته في مقدمة هذه الحواضر بركب ضخم ينطلق منها فى وقت معلوم، بعد وصول كافة من رغب الحج من الجنوب الشرقي الموريتاني وأزواد، وحجاج تيشيت الذين كانوا يلتحقون بهم فى توات.

وساهمت مواكب الحج التكرورية بدور مهم فى انتعاش التجارة مع مصر المملوكية، بل وذكرت المصادر أن جاليات عريضة من أهل التكرور استوطنت مصر وسكن منها فى القرافة ثلاثة آلاف شخص[2]. وكان يفد من مدينة تكدة "مدينة التجار" مع قوافل الحج بحلب بضائع مصر النفيسة، وكذلك ولاته التي ذكر أن بطوطة لاحظ أن ثياب أهلها حسان مصرية، واصبحت الدراهم التكرورية متداولة في

---

[1] الإسلام والمجتمع فى إفريقيا الغربية خلال القرنين ١٨/١٧ للميلاد، حوليات كلية الآداب، جامعة نواكشوط، العدد الثانى، ١٩٩٠، ص١٩.

[2] أحمد بن عرفة التكرورى، العرف المشهور فى حجاج بلاد التكرور، مطبعة الخانجى، ١٣١٤هـ، القاهرة، ص١١٨.

مصر وموثوق بها لثبات قيمتها فى الأسواق وجودة عيارها[3]، وكذلك أسفرت الحفائر الأثرية في مدينة جاوا (كوكو) عن وجود دراهم مملوكية مصرية.

وكان حجاج بعض مناطق بلاد شنقيط يرحل حجاجها عبر ركب الحج التكروري. فقد ذكر المقريزي في "حوادث سنة ٨٤٤هـ" "وصول ركب الحج التكروري بأعداد ضخمة لا تقل عن خمسة آلاف نفر". وإن كان هذا الركب الذي يعد الأكبر والأشهر في ذلك الوقت أعداد حجاجه خمسة آلاف حاج، فإنا بالتالي نعتقد أن رقم اثنين وثلاثين ألف بعير كعدد فى قافلة واحدة مبالغة مع الأخذ في الاعتبار ما فيها من تجارة وتجار.

وهنا تمييزاً بين ركب المغاربة وباقي قوافل الحج من غرب إفريقيا. قال المقريزي "فى حوادث سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة، وفى خامس عشرة (شوال)، قدم التكرور ومعهم رقيق كثير، وفيهم ملكهم، فسأل ملكهم. وفى سنة خمس وثلاثين وثمانمائة، فى ثالث عشر من شوال قدم ركب الحجاج المغاربة، وقد ركب الحج التكروري ...".

ولعل أول شبكة وردت إشارة إليها هي شبكة تجار الخوارج عبر تاهرت، التي كانت لها روابط قديمة مع غائه بسبب تجارة الذهب، والثانية هي شبكة أبناء المقري بين تلمسان وسجلماسة، وهما من مدن العلم والفقه، وبين ولاته، وعملت على حماية وتأمين التجارة وحفر الآبار، وشبكة دار إيلينج، الزاوية الدينية التي كانت تسير أربع قوافل سنويا، وكانت تبعيتها للأشراف (شريف تازروالت حسين بن هاشم مع الشيخ إبراهيم الخليل)[1]، وكان نجاحها بفعل تبعيتها لهم وتوظيف العامل الديني لتأثيره في توفير الحماية لشبكات التجارة، حيث الشرف والمنزلة الدينية كانا حرزين لحماية القوافل العابرة للصحراء، واستمر تلازم العامل الديني مع النشاط التجارى مؤثراً في إنجاح شبكات التجارة. ويبرز دور ونشاط قبيلة كنته بما لها من نفوذ روحي وتأثير فقهي من خلال دورها فى نشر الطرق الصوفية، مثل ما قام به سيد أعمر بن سيدي

---

[3] ابن بطوطة.

[1] عبد الودود ولد الشيخ، القرابة والسلطة، قراءة نقدية فى النظرية الإنقسامية، حوليات كلية الآداب، جامعة نواكشوط، العدد ٣.

محمد بن سيد أحمد الكنتي الذي أخذ عن الإمام المغيلي، وسمح انتشار المريدين من توات شمالاً إلى ضفاف نهر النيجر جنوباً بخلق شبكة تجارية آمنة مطمئنة طوال هذا الطريق، ساعد عليه تزايد نفوذ بطن كنته المتغنبرين بودان، ونجحت فى إرساء تقاليد راسخة لتجارة القوافل.

أما الطريق الأهم، والذي حمل الحجاج إلى بيت الله، فهو الطريق الشرقي المتجه من غرب الصحراء والسودان نحو السودان الشرقي (سودان وادي النيل) عبر السافانا الإفريقية، أو عبر وسط الصحراء الغربية فى مصر. هذا النفوذ الذي استفادت منه القبائل المارة بحدود إمارة أولاد أمبارك من إعفاءات ضريبية قدمها أولاد إمبارك إلى قبائل الزوايا والعلماء والشرفاء.

ويعد هذا المحور سابق للقرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، وشكل نقطة اتصال مهمة بين بلاد جنوب الصحراء وشمال إفريقيا، وظل بحكم المبادلات التجارية إلا أنه فقد أهميته خلال القرون الثلاثة التالية حتى عادت أهميته وزادت بداية القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، مع بداية النهضة الحفصية فى عهد السلطان أبي العباس (٧٧٢-٧٩٦هـ/١٣٧٠-١٣٩٤م) التي منحت حسب تحليل د. محمد الشنافي حظ استعادته لنشاطه عبر تمبكتو.

دور الحج فى تحويل طرق القوافل:

ولا شك أن العامل الرئيسي فى هذا التحول لم يكن التجارة القافلية عكس ما كان قبلاً، وإنما الحج الذي زاد من عدد وحمولة القوافل، وبارك طريقها. وهكذا بدأت الحركة القافلية تتجه نحو طرق الشرق قبيل نهاية القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي تواكباً مع انهيار الأمن على طول الطريق القديم وازدياده في الطريق الشرقي خصوصاً مع هيمنة الدولة الحفصية في تونس وبسط سيادتها، وهو ما تؤكده شهادات الرحالة ابن بطوطة والحسن الوزان والسعدي.

وإن كانت التجارة التي حملتها عبر القوافل الصحراوية في غرب إفريقيا موغلة في القدم، فإن وصول طلائع الإسلام منذ القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، زادها حيوية بعد ازدياد التلاحم بين ضفتي الصحراء الكبرى – شمال إفريقيا وبلاد السودان الغربي. وكانت أهم محاور هذه القوافل الطريق اللمتوني – الغربي – الذي كان يصل

بين درعة شمالاً وغانة جنوباً، وطريق المحور الأوسط وهو الذي يربط بين أتوات شمالاً وعقفة نهر النيجر جنوباً.[1]

وكلاء القوافل:

اعتمد التجار ممن تنوعت حركة تجارته ارتباطاً بالقوافل على وكلاء سواء، كانوا محليين أو مبتعثين لرعاية مصالحه وتجارته. وغالباً ما كانت علاقتهم بوكلائهم دائمة، بل ويتوارث أبناء الوكلاء وكالات آبائهم لتجار القوافل فى محطاتها الرئيسية: ولاته، وودان، وتيشيت، وشنقيط، وتمبكتو، وإن صادفنا إحجام المصادر أو شحها في تسجيل هذه الوكالات، إلا أن إشارات عديدة وصلتنا في بعضها، أهمها ما سجله ابن بطوطة "إنه كان قد كتب رسالة إلى تاجر مغربي مقيم بايوالاتن دولاته، يدعى ابن بداء أصيل من مدينة سلا قبل قدومه إليها كي يهيىء له المقام بها، كما أشار السعدي إلى تواجد جاليات من تجار الغرب الصحراوي ينتمون لتوات، وفزان، وولاته، وودان، مقيمين في تمبكتو. وكان ابن المقري عبد الواحد وعلي بن قدم الوكلاء الذين رصدتهم المصادر.

وكان للوكيل تداخلاً مع الجلاب في أداء وظيفتيهما، وهو تاجر الشمال الذي تحمله القوافل جنوباً لاستيراد السلع، بيد أن الوكيل غالباً كان مقيماً، والجلاب مرتحلاً.

كما كان هناك وسطاء تجاريون مهمتهم المبادلات التجارية، أهمهم كان من اليهود فى مراحل التجارة الأولى، بداية من القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، حتى طاردهم محمد عبد الكريم المغيلي (توفي ٩٠٩هـ/١٥٠٣م)، إلا أن الوساطة لم تكن حكراً عليهم خصوصاً ما بين القرنين الثامن إلى الحادي عشر الهجري/الرابع عشر والسابع عشر الميلادي. بدليل ما ذكره "هنري بارث"، أن أبرز الوسطاء في تمبكتو كانوا من غدامس، وما رصده بن إيده الهلال خلال جرده لأرشيف ولاته التجاري عن فوائد لتجار من فزان مستحقة على بعض تجار ولاته في القرن الحادي عشر.

---

[1] أحمد حسن التوانى، الإمارات والمجال الأميرى البيضانى، حوليات كلية الآداب، جامعة نواكشوط، العدد ٣، ١٩٩٠.

ضخامة القوافل وتعداد البعير:

وتورد بعض المصادر المحلية الموريتانية[1] (سجلت ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م) اشتراك اثنين وثلاثين ألف بعير فى قافلة لتجار من تيشيت وشنقيط. وإن كان الباحث يرى مبالغة فى هذا الرقم، مما يدعونا للتشكيك في هذا الرقم، مع التسليم بضخامة القوافل، حيث أشار ابن حوقل إلى أن أخت ملك أودغست كانت تملك ألفاً وخمسمائة رأساً من الإبل، وهو ما يدفع الدكتور أحمد ولد أيده الهلال إلى التسليم بإمكانية تسيير قافلة عدد إبلها اثنان وثلاثين ألف بعير قياساً على ذلك .. "إذا كانت ثروة إمرأة واحدة من علية القوم تصل إلى هذا القدر، فما الحال بعدد الرؤوس المؤلفة لقافلة تجارية يفترض اشتراك الأثرياء من التجار فيها، مستنداً على ما ذكره ابن زرع "إن المرابطين لما دخلوا سجلماسة وجدوا بها خمسين ألف بعير، وأن يوسف بن تشفين أهدى لابن عمه أبا بكر بن عمر ألف بعير وتنازله ليوسف".[1] وإن كان الباحث يرى تجاوزاً، أن عدد بعير كل قافلة ربما تعدى الألف ويزيد خصوصاً وقد أشار الألمانى هنري بارثى (زار المنطقة عام ١٨٥٥م) إلى أن بعض القوافل كانت تصل إلى عشرة آلاف من الإبل.

وقد ذكرت بعض المصادر أرقام هائلة لعدد العير التى خرجت كقافلة واحدة من شنقيط "وخرجت من شنقيط رفقة ثمانية وثلاثين ألف بعير، وإن كانت هذه العير موقورة بالملح في زوايا أخرى.

قيادة القوافل:

يدير قائد القافلة شؤونها بما يراه ومنها التصرف في رؤوس الإبل المكونة لركبه، وقد يقوم ببيع بعضها إذا أصابها الإعياء أثناء الرحلة، كما يتصرف أيضاً في الدواب التي تعيق حركة الركب، ينتدبه الشيخ البدوي صاحب الجمال المسمى "المقدم" أو إقديم – حسب اللهجة الحسانية – وسلطاته مطلقة على القافلة، ومسؤوليته كاملة عنها ومنها استئجار الأدلاء (التاكشيفيت) الذين يستكشفون الطريق حسب لغة البربر الصنهاجة. ويعاون هذا القائد طاقم من الرجال الأشداء، هم المدربين والقادرون على

---

[1] ابن حامد، الحياة فى موريتانيا، الديوان المجموع.

[1] د. أحمد ولد أيده الهلال، مدن موريتانيا، ص٩٨.

التحمل والجلد والصبر، فضلاً عن القوة الجسمانية لتمكنهم من إنزال الحمولة عن ظهور الإبل.

وتكون بعهدة قائد القافلة سجل المحاسبة، ويحتوي على جرد مفصل لحمولة القافلة من البضائع والرسائل والودائع منذ تحركها من محطة الانطلاق، ويراقب المعاملات من مبيعات ومصروفات على امتداد مسار الرحلة. وتشكل حراسة القافلة وخدمة رجالها وإعاشتهم مهمة قائدها.

كانت القافلة تتكون من الجمال يحدد عددها أهمية التجارة وعدد الحجاج، وشكل امتلاك قطعان كبيرة من الإبل أحد أهم عوامل تحول مدن العلم إلى محطات مهمة على طريق القوافل.

النفوذ الروحي لقوافل الحج:

وهذا النفوذ الروحي الذي تمتعت به قوافل الحج لعلو شأن من تحمل من شرفاء وعلماء، بل إن الباحثين المعاصرين أقروا بأن التحالف مع هؤلاء العلماء كان عنصراً أساسياً فى ظهور هذه الإمارات وتميزها عن المشيخات القبلية.

ومثلت فكرة، أو ما يمكن أن نطلق عليه "طقس"، التوبة عاملاً هاماً من عوامل استقرار الفقهاء ودعم حركة القوافل بالحماية الدينية الروحية ورعاية الحجاج. ومفادها أن توبة أو هجرة الجماعات الحسانية، وما أسهمت به فى إنشاء فئة الزوايا[1]، أدى إلى استقرارها وتخليها تدريجياً عن نمط الحياة البدوية، وهو ما تشهد عليه "الحسوة البيسانية" لمحمد صالح بن عبد الوهاب الناصري، الذي لم يستخدم مصطلح مهاجر إلا كعلامة على المحارب الذي يترك السلاح ويتوب ويهاجر إلى المدينة كي يصهر حريته الجديدة، باعتبار أن المدينة هي المكان المناسب مثالياً للمارسات الدينية الإسلامية. بمعنى تركز الفقهاء فى هذه الحواضر يدعمها فكرة عدم جواز صلاة الجمعة إلا فى المدينة العامرة والمسجد الكبير. وهو ما تؤكده أغلب مصادر التاريخ فى هذه المنطقة، حيث لم تعرف البوادي حضوراً قوياً للفقهاء على غرار ما فى المدن

---

[1] محمد صالح ولد عبد الوهاب، الحسوة البسيانية فى معرفة الأنساب الحسانية، جامعة نواكشوط، ١٩٨٩، ص٩٥، تحقيق: د. محمد ولد أحمد البرناوى.

التى كانت الخطط الدينية فيها للأسر المؤسسة المرتبطة بطقوس الدين وأهمها الحج أو المنحدرة من النسب الشريف، وهى كثيرة فى كل حواضر مدن صحراء غرب إفريقيا.

العجيب أن هذا الازدهار لتلك المدن وحتى تأسيسها، واستتباب الأمن على طرق القوافل إليها حدث فى فضاء انعدمت فيه السلطة المركزية، عكس نظرية ابن خلدون التي تؤكد أن "الدولة دون عمران لا تتصور، والعمران دون الدولة والمسلك متعذر...".

طرق الحج وتأثيره على مدن القوافل

أ- قصور الصحراء فى مصر:

أنعشت هذه القوافل الطرق ما بين الحجاز وبلاد الغرب الإفريقي وجعلتها موصولة بالعمران، فأحيا الله بالحج زروعاً وضروعاً، وحافظت قوافل ركب الحج على استمرار الحياة، أو على الأقل كسر عزلة عدد من واحات الصحراء الغربية لمصر امتداداً إلى خط الساحل شمال الصحراء الكبرى جنوب ليبيا. ففى مصر أنهت هذه القوافل عزلة واحة سيوة التي كانت تُعد أبعد نقاط العمران والتخفي عن العالم. لذا فر إليها كهنة آمون بعد فترة انحطاط عبادته. وظلت منعزلة إلى أن طرقتها قوافل الحج الشنقيطية والتكرورية[1]، وجاءت أول إشارة لها لدى ابن حوقل، "كان من ظهرها إلى بلاد السودان بالغرب على الطريق التي كانت من مصر إلى غانا". وبدأت فى الانتعاش نتيجة مرور قوافل الحج بها وسجلت هذه الرحلات آثارها المتنوعة إلى الآن، حيث يعد الجبل الأشهر بواحة سيوة هو جبل الدكرور، وهو تحريف لاسم التكرور، وهو نفس الأمر الذي ينطبق على مقام سيدي الدكروري. وفى الأصل التكروري، كما أورد علي باشا مبارك فى خططه التوفيقية، ولازالت واحة سيوة تحتفظ بخليط عرقي في سكانها مذهلاً ما بين تكرور وصنغي وأمازيغ وعرب أنصار، كما تحتفظ ذاكرتهم بكثير من "حكايات الغرب والغرابة"، وتشهد على ذلك الأسماء (غير المصرية)

---

[1] أيمن السيسى، حكايات الصحراء، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة إصدارات خاصة، القاهرة، ٢٠١٣، ص٤٨.

المنتشرة فيها إلى الآن مثل كمزاغ، وألفا، ومودب، ومالم وغيرها من أسماء الرجال في بلدان الغرب الإفريقي[2].

وبذلك نستطيع أن نذهب إلى أن قوافل الحج دعمت وجود هذه الواحات وحافظت على بقائها وعدم تعرضها للفناء، كما حدث لواحات سترة، ونوميسة، وعرج، وتبغبغ، وبحرين، فى نفس الصحراء الغربية المصرية، صادفها سوء الحظ أن لم تمر بها هذه القوافل ولازالت آثارها الرومانية تشهد على الحياة فيها قبل الإسلام.

وفى واحة الجارة بقيت آثار هذه الرحلات تتمثل في مقامي سيدي ياجا وسيدي عبد الله، أما سيدي عبد الله، فهو ابن قطب الأنصاري، وتلقيبه بالحاج بلّه أو بلاَّ في كتابة أخرى حجته التي صحب فيها شقيقيه محمد(أمدايًا)، ومحمد "أبَّانيْن".

ويذكر الدكتور عبد الله بن محمد مهدي الأنصاري الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود بالمملكة العربية السعودية قصة يطول ذكرها فى نزولهم مصر وملخصها أنه وقعت لهم مسألة.

ذكر الدكتور عبد الله الخبر مستفيضاً وهو مشهور فى قبيلتهم، أما "بول مارتي" فيذكر أن "الحاج بلاَّ"، وقد توفي إثر عودته من أداء فريضة الحج فى واحة غير محدودة المكان، أما "محمد محمد الشيخ الأنصاري" فيذكر فى كتابه "تقاربت الأخبار والروايات فى مكان وفاته بعد عودته من أداء فريضة الحج حيث قيل إنه مدفون فى واحة"سيوة"، وقيل فى قرية قريبة من واحة سيوة تسمى "أم القصير"، وقيل أيضاً فى قرية تسمى "أم السنيين" القريبة من واحة سيوة[1] ولذلك يعرف الحاج بلاَّ بـ"الأب المصري أو "أبَّا وأنْ مِصرَ"، ولمعرفتي بواحات الصحراء تأكدت بالفعل من وجود جسده الطاهر في مصر أما الواحة، فاسمها "قارة أم الصغيرة" أو "الجارة فى النطق المصري، ويوجد بها مقامان لشيخين، يقول أهل الواحة إنهما من الحجاج المغاربة

---

[2] المصدر السابق، ص٥٠، وما بعدها، فصل "الجارة".

([1]) محمد محمد الشيخ الأنصارى . بعض علماء وأعيان الأنصار بصحراء تمبكتو ٢٠١١، دون ذكر بلد الطبع أو الناشر ص ٢٠٨.

الأول هو سيدي ياجا والثاني سيدي عبد الله، وقد كانت قوافل الحج أو ما يعرف بـ"ركب الحج المغاربي"، والشنقيط – من موريتانيا الحالية – والتكروري القادم من بلاد التكرور والمغرب وغرب إفريقيا تمر بهذه الواحة، التي تعرف بأنها أصغر واحات الصحراء المصرية وأقلها عدداً في الأنفس.

قال إخباريو الواحة ومنهم الشيخ يوسف حسن إن قافلة حطت فى المنبسط – وادٍ بالقرب من القرية الواحة.

أما صاحبا الضريحين فهما "سيدي ياجا" فتذكر المدونات القديمة والأخبار الشفهية أنه كان عبداً للمنسا موسى[1]، التقى الإمام السراج البلقيني صاحب شرحين على الترمذي في الحج عام (٧٩٢هـ) واصطحبه فى رحلة عودته إلى تمبكتو، وصاحبه من القاهرة بعد الراحة فيها شهوراً حتى آخر حدود مصر، وعند واحة الجارة توفي فدفنه السراج البلقيني وعاد، أما "سيدي عبد الله" فهو أيضاً من الحجاج الذين قضوا فى المكان، من الواحة، وكانت لهما بركات وكرامات، اشتكى أهل الجارة فقرهم وضعف محصوله، ولكنهم أعطوه "وبية" فقبلها شاكراً داعياً لهم بالبركة، وهو ما حدث فزاد المحصول، مما أبهجه عند عودته من الحج وتوقفه لديهم فأكرموه، وكان معه شاب مصري يقوم برعايته وخدمته تبركاً به[2]، لم يذكروا، كما جاء فى كتاب الدكتور عبد الله أن الشاب كان من تمبكتو، وأيضاً لم يذكروا لى اسمه، ولكنى اكتشفت بالمصادفة المواتية لمجهود باحث أنه هو سيدى محمد الشريف الصعيدي، أو هكذا

---

[1] أيمن السيسى، الجارة، الأهرام، ٩ يوليو، ٢٠٠٩.

[2] نشرت عدة موضوعات عن الواحة وتكررت زياراتى لها ومن حسن الحظ أنى احتفظت فى أرشيفى بحديث الشيخ حسن خليفة، مما لم يكن مناسبا نشره حيث نحوت فى التحقيق إلى الجانب التنموى فى الواحة ، وعندما أهدانى الزميل عكرمة الأنصارى بعض الكتب عن قبيلتهم أثناء إعدادى لهذا الكتاب ربطت ما جاء بها مع موقع الجارة ومقام سيدى عبد الله، وما حكى لى شيخها عنه وعن سيدى ياجا فعدت إلى الأرشيف لربط الوقائع.

الظن، فقد صادفت حكاية أخرى ربما يكون صاحبها هو الفتى المصاحب لـ"سيدي بلا" وهى حكاية الشاب المصري التقي الورع "سيدي محمد الشريف الصعيدي" المولود فى الفيوم عام ١١٩٩هجرية والذى تضلع بالعلوم والمعارف الدينية ونهل من معين شيخه "عبد العليم الفيومي" ثم خرج سنة ١٢١٥ سائحاً متجهاً إلى مجمع البحرين، ثم صحب الحجاج عائداً ووصل إلى المنتبذ القصي في موريتانيا ١٢٢٢هـ وكان أول من اتصل به أهل بارك الله فيه في تيرسى، وتوفى عام ١٢٣٢هـ.

وحسب المعلومات الشحيحة التى وردت فيما كتب عن "سيدي محمد الصعيدي"، ولا شك أنها أيضاً مما تناقلته الأفواه وحفظته ذاكرة المحبين فإن الفتى "سيدي محمد الصعيدي" عندما ترك أهله وورد مجمع البحرين – عند السويس – وهو أيضاً طريق الحج، فيجوز أنه التقى بسيدي "بلا" أثناء عودته من الحج أو في رحلة ذهابه وعاد معه إلى أن وصل إلى "الجارة" ثم صحب شقيقيه بعد وفاة الشيخ إلى "تمبكتو"ومنها ساح إلى أن وصل المغرب ثم عرج إلى "تيرس"، وهو أمر يتفق مع خطوط سير القوافل وترحال القبائل حاملة الفقه والفقهاء – وهي رحلة تستغرق حسب أزمانهم خمس سنوات تزيد أو تقل على قدر التوقف والمكوث فى محطاتها. وهو ما يتوافق مع تاريخ الشيخ وعمره المدون لدى أحفاده ومريديه رضوان الله عليهم . وهو ما وجد فى رحلة البحث عنه إلى موطنه الأول – الفيوم – .

ومن مدن وحواضر العلم الشهيرة التي أنعشتها قوافل الحج والتجارة وأدت إلى ازدهارها بالعلم سجلماسة، خصوصاً بعد أن تدهور المحور أو المسلك الشرقى التى كان يتخذ محاذاة السافانا الإفريقية حتى يصل إلى مناطق دارفور إلى شرق السودان، ثم يصعد نحو سيناء ليعبرها إلى الحجاز. يقول ابن حوقل "فتواترت الرياح على قوافلهم فأهلكت غير قافلة، وقصدهم أيضاً العدو، فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه إلى سجلماسة ...". ويكمل الإدريسى: "إن المرابطين فتحوا طريقاً من سجلماسة إلى مصر عام (٥٣٠هـ/١١٣٥م)، وإن ظل المحور الشرقي مستخدماً بعض الشيء خصوصاً مع انتعاش مرحلته الموصلة إلى مصر من السودان الشرقي "درب الأربعين"، ساعد على انتعاش المحور الشرقي قبل القرن العاشر الهجرى، السادس عشر الميلادى، مع

صعود مملكتى سنار الإسلامية ودارفور، وكذلك مملكة واداي (تشاد) الحالية، وهو الطريق الذي استخدمه محمد الأمين بن المختار الجكني فى عيذاب التى كانت ممراً لبعض حجاج المغرب والغرب الإفريقي، خصوصاً فى الفترة التي سيطر الصليبيون على فلسطين وضايقوا الحجاج وهاجموا قوافلهم.

وكذلك فزان التى كانت إحدى المحطات الهامة لقوافل ركب الحج المنطلقة من (جاوا) إلى شمال تكده ثم توات، وأيضاً المنطلقة من تمبكتو إلى "وركلة"، ساعد على ازدهارها سلوك المحور الأوسط نتيجة اضمحلال الطريق العربي بسبب أن الأعراب من البادية السوسية صاروا يغيرون على سالبتها ويعترضون رفاقها فتركوها ونهجوا الطريق إلى بلد السودان من أهل تمنطيت (إقليم توات).

وإن وقف شح المصادر حائلاً دون ذكر قوافل الحج من الغرب الإفريقي كمؤسسة محددة المعالم قبل القرن العاشر الهجري إلا من إشارات، أهمها ما سجلته المصادر عن رحلتي منسا موسى، وأسكيا محمد، وأفصحت بتوسع عنه بداية من القرن العاشر الهجرى.

ب- تمبكتو:

كانت تخرج منها أربع طرق رئيسية للقوافل المتجهة إلى مصر وتمر بكانم ثم جاءوا والثانية إلى تونس وتمر بهجار والثالثة إلى المغرب الأقصى عبر طريق سجلماسة وتوات والرابعة وتمر بمالى .

وبذلك أصبحت تمبكتو ملتقى القوافل وسوقاً مهمة تلتقي فيها بضائع العالم سواء من الشرق حيث كان يؤمها تجار مصر أو من شمال إفريقيا من غدامس وفاس والسوس وتغازة حيث منجم الملح المشهور.

وتوافد عليها الفقهاء من كل حواضر العالم الإسلامى ، فأسهموا فى إذكاء روح العلم والتنوير والتجديد للفقه الإسلامى حتى امتلأت جوانبها . فى القرن السادس عشر . بأكثر من ١٨٠ مدرسة انتظم فيها التعليم فى مراحل تعليمية كالتى نعرفها فى قرننا هذا (الحادى والعشرين)، لا تتقيد بالسن فى الانتقال بين مراحل التعليم من أوليه. وما نعرفه الآن بالثانوية. كان معيارهم هو الفهم والحفظ الذى كان الآباء يحرضون عليه أولادهم الدارسين البالغ عددهم آنذاك ستة عشر ألف طالب.

وفى نفس السنوات التى ذكر فيها محمود كعت[1] أن تعداد سكانها فى عهد اسكيا محمد تجاوز ٢٠ ألفاً وهو رقم كبير جداً بالنسبة لمدينة فى الغرب الإفريقى مما يدل على اتساع رقعتها وكثرة عدد سكانها فيها واهتمامهم بتعليم أولادهم فضلاً عن كثير من الطلبة الوافدين من البلدان المحيطة.

وإن كانت هناك آراء أخرى تؤكد أن تمبكتو أضحت أهم محطاته نتيجة إزدهار العلم فيها بسبب تواصلها الدائم والمباشر مع حواضر العلم الرئيسية فى الشرق مثل الأزهر والحجاز عبر قوافل الحج، حيث تهافت علماءها على نقل المتون والأسانيد المصرية والحجاز ليس إليها فقط بل وإلى بلاد شنقيط ومدن العلم فيها، لا نقول بدءً بمختصر خليل بن إسحاق، لأن هناك ما سبقه، ولكن لأن هذا المختصر أصبح منذ دخوله مطلع القرن العاشر الهجرى، السادس عشر الميلادى، أهم المتون الفقهية المتداولة على الإطلاق، ليس فى منطقة الساحلين السودانى الغربى، والصحراوى من بلاد شنقيط فحسب، بل فى غرب حوض نهر النيجر وشرقه إلى تخوم بلاد الهوسا، شمال غرب نيجيريا الحالية[2]، ومثل الاعتماد على مختصر خليل والتزام منطوقه ومفهومه مصدراً أوحداً للأحكام الشرعية ومظهراً صارخاً لترسيخ النزعة الفروعية التى وضع المرابطون أسسها الأولى، وهو ما يمكن اختزاله فيما نسب من قول مشهور لأحمد بابا التمبكتى "نحن قوم خليليون، فإن ضل ضللنا".

وقول الشيخ محمد المامى البارکلى "كلما سكتت ألفاظ خليل، فقد سكت المولى وياسين[3]، التدرج فى اعتماد هذا المختصر كان تعبيراً عن تزايد عدد الحجاج واستزادتهم من الرافد المصرى ما بين رحلتى منسا موسى وأسكيا محمد، وإن اكتملت عملية الانتقال المنظم إلى الشرق فى عهد الأساكى (١٤٤٣-١٥٩١)، وشهدت إزدهاراً فى العلاقات الفقهية والحضارية والقافلية فى ظل سلطنة المماليك فى مصر

---

(1) (الفتاش) .

(2) ددود بن عبد الله: الإسلام والمجتمع فى إفريقيا الغربية خلال القرنين ١٧، ١٨، حوليات كلية الآداب، جامعة نواكشوط، العدد ٣، ١٩٩٠.

(3) محمد المامى، البادية، تحقيق د. محمد ولد البرناوى، زاوية الشيخ المامى، نواكشوط، ٢٠١١، ص٩٨.

مما جعل مدن الساحل السودانى خلال القرون ١٤، ١٥، ١٦ ميلادية تتأثر كثيراً بزيادة أعداد الحجاج وتأثرهم بدراسات الفقه المصرية. وتحدثت كثير من المصادر عن رحلات حج لفقهاء كثيرين من أسر العلم المعروفة فى تمبكتو منها آل أندغ أمحمد، وأسرة آل أقيت، وأسرة آل محمد بن الحاج، ومجموعات أخرى صنهاجية وسودانية. وتذكر المصادر أحمد بن عمر أقيت الذى عرف بالحاج أحمد (توفى ٩٤٢هـ)، وهو جد أحمد بابا التمبكتى الذى وصل إلى الشرق عام ٨٩٠هـ، ولقى السيوطى وخالد الأزهرى وغيرهم. وكذلك ابنه أحمد بن أحمد (٩٩١هـ)، وحج وزار، ولقى جماعة من المصريين كناصر الدين اللقانى، والشريف يوسف الأميوطى، وجمال الدين بن الشيخ زكريا الأنصارى، والشيخ التاجورى، والأجهور، وطبقتهم من الحجازيين مثل أمين الدين الميمون، وابن حجر المكى، والملائى، وبركات الحطاب، وعبد العزيز اللمطى، وعبد القادر الفكهانى، ويذكر السعدى الفقيه العاقب بن عبد الله الأنصمنى[1].

والأمثلة كثيرة من فقهاء تمبكتو، ممن تمتعوا بالحج ولقوا الفقهاء فى الحجاز ومصر وعادوا بتأثيرات علمية أفادت فى إزدهار تمبكتو.

خصوصية التلقي المعرفي

ووصل الحال بفقهاء الغرب الإفريقي إلى إرسال مخطوطات كتبهم لتقريظها من علماء الأزهر، فأرسل "أتباع المجذوب كتاب المنه الذى يحوي تعاليم محمد بن أحمد الشمسدى (المجذوب) فعرضوه على علماء الأزهر، فاستحسنه جماعة منهم أبو اسحق وعبد الباقى الزرقانى والأجهورى والشيخ محمد الخرشى، وغير ذلك مما ذكر فى مواضع أخرى.

وإن اقتصرنا منها فإن غاية ما أردنا تأكيده هو خصوصية التلقى المعرفى لعلماء الغرب الإفريقى عن الأزهريين الذى فرضته ضرورة المرور بمصر إبان رحلة الحج، ولهذا فإن تأثير الحج أسهم بأن نقل الحجاج الشناقطة إلى بلادهم الإجازات

[1] حاشية الدسوقى على الشرح الكبير للدرير، دار الفكر، بيروت، ج٤، ص٢٨٣.

والأسانيد والمتون المصرية والحجازية، وبالتالى كان من الصعب عليهم تجنب التأثير الفكرى والفقهى بحكم قوتهما فى مصر ورسوخ التقاليد المعرفية الشرقية وتنوعها.

وعدَّدَ الدكتور" حماه الله" بعضاً من الفقهاء من أُسرِ العلمِ فى الغربِ الإفريقى الذين انتقلوا إلى المشرقِ مِثل أسرِ آل اندغ وآل أقيت وآل محمد بن الحاج، وأحمد بن عمر بن محمد أقيت (الحاج أحمد المتوفى فى(٣٤٦هـ/ ٩٤٢م)[١]، والذى رَحَلَ إلى المشرق عام(٨٩٠هـ/١٤٨٦م)، ولقى السيوطى وخالد الأزهرى[٢] وابنه أحمد الذى حجَّ ولقى جماعةٌ مِنَ المصريين كناصر الدين اللقانى، والشريف يوسف الأسيوطى تلميد السيوفى وجمال الدين ابن الشيخ زكريا الأنصارى والتاجورى والأجهورى. ولاشك أنَّ ركبَ الحجِّ هذا ساهمَ من خِلال الحجاج الشناقطة والتكرور فى نقلِ الإجازات والأسانيد والمُتون المصرية إليهم . ومن المصادر المصرية الحسن المسوفى التكرورى الذى هاجرَ إلى المدينة ودفن فيها، ومحمد بن عبد الله التكرورى، وعبد العزيز التكرورى الذى رحل إلى المشرق أواسط المائة التاسعة.

ويصلُ الدكتورُ حماهُ الله السالم إلى أنَّ الناظر لهذه الأمثلة الدالة على عمق الصلات الفكرية بين الشناقطة والمشارقة سيكتشف أنَّ عملية الانتقال والتواصل العلمي جاءتْ فى القرن العاشر الهجرى التى عرفت شهرة واسعة للعلماء المصريين، فازدهرت الأسانيد العلمية المصرية، وطبقت شهرتُها الآفاق .واعتبروا عطاءَ الجامع الأزهر ومشايخه مرجعهم الدائم فى كلِّ النوازل الفقهية الصعبة المستعصية والبت حتى فى شئون صراعاتهم الفكرية.

ومثلت أسر الفقه فى هذه الحواضر وفى تمبكتو جنوب الصحراء التي حج أفرادها وأخذوا عن فقهاء الحجاز والأزهر ونقلوا معهم المتون. وكتب العلماء زوايا إشعاع من

---

(١) آل آقيت وينسب إليهم أحد أهم علماء الغرب الإسلامى وهو أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد آقيت ،ولد ب"تمبكتو"عام ١٥٥٥م وتتلمذ على يد والده وعلماء مصر ودرس الفقه واللغة ، تصدى للتدريس فى مسجد الشرفاء بمراكش وتتلمذ على يده عدد من علماء المغرب .

(٢) د .حماه الله ولد السالم "حوار المركز والأطراف فى الثقافة العربية وبلاد شنقيط فى الذاكرة العربية العالمة "نموذجا"،ص ١٣٣ ، إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، ٢٠٠٤م،.

مساجدها أهمها فى تمبكتو سنكري الذى بناه أبو إسحاق الساحلي بتكليف من منسى موسى الذي اصطحبه في رحلة عودته من الحج، وقد التقيا في مكة. ومن المؤرخين من يقول إنه شيد عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م، وأن القاضي العاقب جدد بناء محرابه[١] فى حين يذكر محمود كعت" أن القاضي العاقب هو من شرع في بنائه .. وقد واتته الفكرة أثناء رحلة حجه، وأنه لما أراد الانصراف من الحج والقفول إلى" تنبكت "استأذن خدم الكعبة المشرفة أن يحد الكعبة ويقيسها بقدمه طولاً وعرضاً، فأذنوا له، فقاسها بالحبل طولاً وعرضاً، ولما أراد بناء مسجد" سنكري "أخرج ذلك الحبل وحدد جهاته الأربع على مقدار الكعبة، ما زادت وما نقصت، وبنى مسجد سوق تنبكت، وذكر السعدى[٢] أن سيدة من قبيلة "أغلال" أوقفت عليه مبلغاً ضخماً من المال لتجديده والمحافظة على مكانته الدينية والثقافية..." وأشار رين كاليه Caillie–Rene إلى مشاهداته وزيارته المسجد، وتحدث عن دوره الوظيفي أثناء زيارة تمبكتو عام ١٨٢٤–١٨٢٩م. وأسهمت تمبكتو بهذا المسجد الذي أصبح جامعة إسلامية فى نشر الإسلام جنوب الصحراء الكبرى وربوع إفريقيا الزنجية عن طريق المبتعثين إليه وإلى مدارس المدينة الدينية من هذه الربوع.

وفى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ازدهرت تجارة القوافل بشكلٍ أكبر من ذي قبل، الأمرُ الذي جعل تمبكتو هى الآخذة بزمام المبادرة فى العلاقات الفكرية بينَ بلاد شنقيط والمشرق.

وتجلى نفوذ علماء الدين وفقهاء تمبكتو وجاو فى تبجيل أسكيا محمد بن أبى بكر لهم عندما تولى السلطة عام ١٤٩٤، حيث كان لهؤلاء العلماء سطوة كبيرة ونفوذ روحي مؤثر جعل الحكام يخشون ما يمكن أن يثيرونه من مشاكل، لكونهم الحفّاظ على سلامة العقيدة، وكانوا – لأنهم أبرز الطبقة المتعلمة – يشغلون مناصب القضاء والمناصب الرئيسية فى الإدارة .. فضلاً عما كانوا عليه من تماسك تفتقر إليه النخب

(١)عبد الرحمن زكى :الإسلام والمسلمون فى غرب إفريقيا ص ١٥٣ . القاهرة ١٩٦٥ .

(٢) عبد الرحمن السعدى، تاريخ السودان، تحقيق د. حماه ولد السالم، ص١٠٣.

الأخرى من المجتمع إذ كانوا يدركون أنهم كمتعلمين يتفوقون كثيراً على كبار القوم العاديين.

ولذلك كان مما اشتهر عن أسكيا الحاج محمد العدل والرحمة بالعلماء والقضاة الذين إن جاؤوه يأمر ببسط حصير الصلاة لهم , وكان لا يحضر طعامه إلا العلماء والشرفاء , ويكثر من سؤالهم عن سنة رسول الله ليعمل على اتباعها ومن آيات التقدير للحج والعائد منه كان من عادة أسكيا ألا يقوم إلا للعلماء والقضاة، والحجاج إذا عادوا من مكة.

وهو ما دفعه إلى رحلته الملكية إلى الديار المقدسة عام ٧٢٤هـ/١٣٢٤م من عاصمته إلى ولاته ثم تواتن، ومر عبر الساحل التونسي مما أتاح للتجار الأوروبيين الذين يعملون فى تبادل السلع مع إفريقيا أن يشهدوا موكبه) حماه الله . حوار المركز والأطراف (ولذلك وصل تأثر أوروبا بهذه الرحلة التي – أيضاً – كانت من أهم رحلات الحج، فكأنها ألهبت حماس العديد من الفقهاء للحج وساهمت فى ترسيخ التجذير الأزهرى للإسلام عبر متون الأزهر ومشايخه بما تناثر من حكايات وما حمل ركبه من متون بعد عودته من رحلة الحج وتفاصيل توقفه فى مصر ولقائه الشهير بالشيخ عبد الرحمن السيوطى.

ومن آيات تقديره للعلماء أنه عندما وصل إلى مصر فى رحلة عودته من رحلة الحج عام ١٤٩٧م رحب بالسيوطي وافتتح معه سلسلة من الرسائل عند عودته إلى صنغى وكان يستجيب لكل نصائحه , ولم يهمل واحدة منها، وهو ما جعل المؤرخين . كما قال فيلكس ديبوا . يشيرون مؤكدين أن مصر تمارس دوراً ونفوذاً حضارياً على السودان الغربى .

وكان ممن صحب أسكيا محمد فى رحلة الحج محمود بن عمر أقيت الذي ولاه" أسكيا محمد "القضاء وبذلك أصبح . كما قال السعدي . أول قاضٍ فيها يفصل بين الناس بالشرع، وكان لكل فئة من الناس قبله قاضٍ .. فالسودان يتحاكمون بينهم عند الإمام أو الخطيب، والبيضان العرب يتحاكمون عند القضاة.

دور الحج فى تعريب لسان الصحراء

البيئة الدينية:

وفى بلاد التكرور وصلت طلائع العلم المجلوبة من الشرق، ففاضت فى جنبات بلدان التكرور وأسهمت فى خلق شخصيات عظيمة كان لها أعظم الأثر فى تجذير الإسلام وتعريب ألسنة القوم فيها ومنهم الشيخ عثمان بن فودي الذي أسس دولة سكوتو، وورد على لسانه فى كتبه العربية ذكر أئمة العلم فى مصر مثل الخراشي[1]، والإمامِ الشعراني وعلي الخواص الغربي الطرطوشي والسيوطي والرافعي والقرافي وعبد العزيز صاحب "الدرر الملتقطة" والإمام السخاوي والخليل ابن اسحاق

---

(1) الإمام الخراشى : أبو عبد الله محمد بن جمال الدين عبد الله بن على الخراشى المالكى ،سمى بالخراشى نسبة الى قريته التى ولد فيها عام (١٠١٠هـ / ١٦٠١م)واسمها "أبو خراش" قرية من مركز شبراخيت بمحافظة البحيرة .. لم ينل شهرته تلك الواسعة إلا بعد أن تقدمت به السن ولذلك لم يذكر أحد المؤرخين الكثير عن حياته .. تلقى العلم على يد نخبة من العلماء والعلام منهم واله الشيخ جمال الدين عبد الله بن على وعلى يد الشيخ ابراهيم اللقانى وهما ممن تلقى العلم وروى عن الشيخ الشهير سالم السنهورى ، وتلقى الخراشى العلم أيضا على يد الشيخ الاجهورى ويوسف الغليش وعبد المعطى البصير وياسين الشامى وغيرهم .. درس على علوم الأزهر المقررة مثل التفسير والتوحيد والتصوف والفقه وأصول الفقه وعلوم الكلام والنحو والصرف والأدب . . وكان متواضعا عفيفا كثير الأدب والحياء حلو الكلام .. قال عنه الشيخ على الصعيدى العدوى فى حاشيته التى كتبها على شرحه الصغير لمتن خليل . . وكان يقسم متن خليل فى فقه المالكية الى نصفين نصف يقرأه بعد الظهر عند المنبر والآخر فى اليوم التالى ، وكان له فى منزله خلوة يتعبد فيها وقد ذاع صيته وسمت مكانته بين العامة والخاصة على حد سواء فكان الحكام يقبلون شفاعته وكان العامة يفدون الى منزله لينالوا كرمه وعلمه ، ترك عشرات المؤلفات التى انتشرت فى أصقاع العالم الإسلامى كله ، ومن مؤلفاته "رسالة فى البسملة" ، "الشرح الكبير على متن الخليل فى فقه المالكية" فى ٨ مجلدات ، "الشرح الصغير لمختصر خليل" ، "الفرائد السنية فى حل ألفاظ السنوسية فى التوحيد" وكان أول من تولى منصب مشيخة الأزهر سنة ١٠٩٠هـ وله من العمر ٨٠ عاما .. وتوفى عن عمر التسعين بالقاهرة ودفن فى قرافة المجاورين وما زالت الذاكرة الشعبية تحفظ له اسمه الذائع الصيت وينادى به "يا خراشى" كجملة اندهاشية أو استنجادية فى أى موقف يستدعى ذلك حتى الآن .. وقد حلل علماء التاريخ ذلك برده الى أصله عندما كان يستنجد به العامة بالنداء عليه "يا خراشى" فيستجيب لهم عند الحكام ،ومن أهم مؤلفاته "شرح المختصر فى فقه مالك" ، للاستزادة ترجمته فى "الأعلام" للزركلى .

الرسالة الموجهة الى ملوك السودان الغربى خصوصاً "الملك الزاهد محمد بن سفطن صاحب "اكدز" وأخويه وابن اختهم محمد بن عبد الرحمن والى الملك "ابرايم سورا" صاحب "كاثينة" .. راجع : أحمد سعيد كلادنت حركة اللغة العربية وآدابها فى نيجيريا . ص ١٦٣ . دار المعارف . القاهرة ١٩٨٢ .

وعبد الرؤوف والسبكي والزبيدي وغيرهم من العلماء والفقهاء المصريين. وتكرر ذكرهم كثيراً عند الاستشهاد بأقوالهم وفتاواهم في أغلب ما تعرض له من مسائل الفقه والعلم في كتبه، مما يؤكد دوام التواصل بين ملوك وعلماء السودان وعلماء مصر، وهو ما فرضته ضرورة الحج، حيث ساهم وقوع مصر في طريق ركب الحج مع نبوغ علماء الأزهر فى هذا الأثر الذي عم الغرب الإفريقي كاملاً.

وأشاعت قوافل الحج بما حملت النور فيما وراء الصحراء الكبرى فى الغرب الإفريقى خصوصاً أن النخب العلمية والدينية كانت نتاجاً للفائض الاقتصادى الذى وفرته تجارة الصحراء مع العالم العربى شمالاً وشرقاً تمازجاً مع الفائض الإنتاجى الذى وفرته تجارتى الذهب من(غانة) والملح من تغازة وتاودنى . تفاعل ذلك كله ليجعل الكتاب (المخطوطات) العربى أهم السلع التى تباع فيها، أو كما قال ليو الإفريقى[١]..." ويباع هنا الكثير من الكتب المخطوطة التى تأتى من بلاد البربر ويجنى من هذا البيع ربحاً يفوق بقية السلع، "وكانت الكتب هى السلعة الوحيدة التى نافست الملح والذهب وكان الأساكى . سلاطين صنغى . يشجعون العلم (العربى) والتعليم , فكانت مكتبة اسكيا داود مثلاً ضخمة جداً , أفرد لها جناحاً فى قصره، وبه عدد من النساخ ينسخون الجديد من الكتب والمخطوطات الجديدة التى تصل إلى بلاده، أو يشتريها له مندوبوه فى عواصم الإسلام وحواضره المزدهرة بالعلم، وكان يتولى بنفسه توزيع نسخها على المعلمين، حتى أنه كان يشترى الكتب ليمنحها لهم، فيذكر بعض المؤرخين أنه اشترى نسخة من " القاموس المحيط " بثمانين مثقالاً من الذهب أهداها لمحمود كعت الذى ذكر فى" تاريخ الفتاش[٢]" أنه رأى نسخة من "القاموس المحيط" تباع فى تمبكتو بثمانين مثقالاً من الذهب.

واستفادت تمبكتو من كونها نقطة التقاء للقوافل ومحطة من أهم محطات التجارة بين المغرب ومصر وشنقيط وغانة وأجاديس فارتفع الفائض النقدى وراجت حركة الشراء فألهبت أسعار الكتب الحماس للعلم، خصوصاً أن هذه القوافل كانت

---

(١) الحسن الوزان وصف إفريقيا . طبعة الرياض

(٢) محمود كعت، تاريخ السودان، تحقيق حماه الله ولد السالم.

دائماً ما تحمل مع تجارتها من التوابل والذهب والملح طلاب العلم والفقهاء والحجاج، فكان ليسر الوصول إليها مع القوافل سهماً كبيراً فى ازدهارها الفقهى .

وكان اهتمام "اسكيا محمد توري" بالغاً بالتعليم فى تمبكتو وبجامعاتها ، مما جعلها قبلة للعلماء والفقهاء والوافدين استضافهم وأكرمهم ،كان يسألهم ويستمع إليهم ومنهم محمد بن عبد الكريم المغيلي[١] عندما زار "تمبكتو"ومعه تلميذه سيدي عمر الكنتي[٢] وكان لهذه الزيارة نتائجها الدينية والتعليمية التنويرية ليس فى تمبكتو فحسب بل وفى كل أرجاء السودان الغربي الذى اعتمد جميع علمائه بلا استثناء على فتاوي المغيلي فى إجاباته على أسئلة" اسكيا الحاج محمد توري"[٣] التى تناول فيها أغلب قضايا ومشكلات هذه البلاد.

([١]) المغيلى : هو محمد بن عبد الكريم المغيلى ينسب إلى "مغيلة" قبيلة من قبائل البربر ، كان أحد أعلام القرن التاسع عشر وقد وصل المغيلى إلى مملكة كاتسينا على رأس نخبة من العلماء فى عهد الملك محمد زنفا (١٤٦٣-١٤٩٩م)، وأحضر المغيلى معه إلى "كنو" عدداً من الكتب، وكان تأثيره على الملك محمد زنفا كبيراً مما جعله يأمر باجتثاث شجرة كانت مقدسة لديهم وبناء مئذنة مكانها ومسجد لصلاة الجمعة، وكتب المغيلى للملك كتابه المشهور "تاج الدين فيما يجب على الملوك"وينسب المغيلى إلى مغيلة وهى قبيلة من قبلئل البربر . التلمسانى ، أحد أعلام علماء القرن التاسالهجرى . عرف بمناوأته وكراهيته لليهود وهدم كنائسهم . سافر إلى بلاد السودان الغربى ووصل إلى "كانو"و"كاتسنه" كتب لسلطان "كانو" رسالة فى أصول الحكم والسياسة الشرعية ومنها استمد الشيخ عثمان الكثير من أفكاره واستشهد بآرائه وأجوبته فى كثير من مؤلفاته ، ولِّى القضاء والإفتاء فى "تمبكتو"، من مؤلفاته "البدر المنير فى علوم التفسير" و"مصباح الأرواح فى أصول الفلاح" و"شرح مختصر تلخيص المفتاح" ،ألف قصيدة له أو "لردية" على وزن بردة البوصيرى . توفى عام ٩٠٩هـ /١٥٠٤م ..للاستزادة راجع ترجمته فى "البستان فى ذكر علماء تلمسان" لابن مريم . المطبعة الثعالبية . الجزائر ١٣٦٩ ص ٢٥٣ . الإسلام فى نيجيريا لـ عبد الله الألورى ص ٨٨ . ٨٩ .

([٢]) (عمر الكنتى) .

([٣])أسكيا محمد الذى عُرف بـ"اسكيا الحاج محمد بن أبى بكر " تولى السلطة عام ١٤٩٤م وحمل لقب اسكيا هو وخلفاؤه من بعده .وأصلها أنه عندما وصلت الأخبار الى بنات "سن على"بأنه تولى الملك صحن (أس كيا) وتعنى فى لغة البمبارا ليس هو وقيل "المغتصب" ،ولما شاعت هذه الكلمة قرر عدم ذكر اسمه إلا بعد كلمة أسكيا ،قام بأداء فريضة الحج فى رحلة شهيرة عام ٤٩٧ وبرفقته ألف جندى من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان وحمل معه

وقد اعتمد عليها من ضمن المعتمدين الشيخ عثمان بن فودى " أول خلفاء الدولة العثمانية السودانية الغربية . سكتو "، فقد استقى منها كثير من الأحكام[١] يذكر الدكتور ماهر شعبان أنها أصبحت حاضرة العلم ومقصد العلماء ومناخ رحالهم حتى ضاهى جامع "سنكرى" وجامعته وغيره من مساجد ومعاهد العلم فى السودان الغربى، بل وتفوق عليها فأصبحت مكانته تضاهى جامعتى القيروان والزيتونة فى تونس، والقرويين بفاس، وجعل تمبكتو حاضرة العلم ومأوى العلماء والعابدين وملتقى الأولياء والزاهدين[٢] .

توحيد البناء الفكرى والنسق المعرفى:

أستطيع القول باطمئنان إن ارتباط تأسيس المدن بالمجموعات الدينية المنحدرة – حقيقة أو انتحالاً – بالنسب الشريف والتزكي بأداء الحج لعلو الشأن تأثيره الهام فى توحيد البناء الفكري والنسق المعرفي لهذه المدن بناء على ما تلقاه حجاج الغرب الإفريقي من المعارف والعلوم والفقه في المشرق على يد علماء الحجاز والأزهر وما عادوا به إلى بلادهم من متون وأسانيد.

وكذلك نجد الإشارات إلى انتقال كتب الفقه المصرية إلى هذه البلاد، حيث ذكرت المصادر الشنقيطية الإمام عبد الرحمن السيوطي فى صدر سند الطريقة القادرية ضمن سلسلة سندها المشارقة. وكذلك ما ذكره فى معجم المشايخ من ترجمة للعالم الشنقيطي عمر بن المختار الذي تردد على منزل شيخ الطريقة الوفائية السيد أبو الهادي الوفائي.

ثلاثمائة مثقال ذهب وكان مؤسس دولة الصنغى وأول ملوكها الذين عُرفوا بـ(الأساكى)وحكموا حتى عام ١٥٩١ عندما أسقط دولتهم المنصور الذهبى .للاستزادة :ابن بطوطة "تحفة الأنظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، و"الوثنية والإسلام.تاريخ الامبراطورية الزنجية فى غرب إفريقيا"ك مادهو بانيكار . ترجمة وتعليق أحمد فؤاد بلبع ،المشروع القومى للترجمة . المجلس الأعلى للثقافة . القاهرة ١٩٥٨م .

(١) أيمن السيسى :"الفكر الدينى لعثمان بن فودى من خلال مخطوطاته" . رسالة ماجستير . معهد البحوث والدراسات الإفريقية . جامعة القاهرة.

(٢) د.ماهر عطية شعبان:جامعة سنكرى .

ورغم شح المصادر فى ذكر البدايات الأولى الأسبق حتى على هذه النماذج، إذ أن الأمثلة القليلة تكفي للتعبير عن طابع الانتقال المتدرج إلى الشرق وتأكيداً على أن استيعاب الرافد المصري حدث بشكل متدرج، صاحب انتقال الفقهاء إلى المشرق في رحلات الحج وعودتهم منها. أما عملية الانتقال المنظم فلم تبدأ بشكل ملفت إلا فى عهد الأساكي بداية من عهد أسكيا محمد التي تألقت فيه الثقافة الشنقيطية في الحواضر (السودانية) وعرف ازدهاراً في العلاقات السياسية والتجارية بين مملكة صنغي وسلطنة المماليك في مصر، مما أسهم في جعل تمبكتو حاضنة العلوم المصرية ومستقرها بعد تزايد رحلات الحج، وحاضرة الازدهار الديني وجسر التواصل بينها وبين حواضر العلم في صحراء صنهاجة (بلاد موريتانيا حالياً).

وساهم فى علو شأن هذا الجامع الجامعة والمدارس ما ضمت بين جنباتها من علماء من هذه الأسر الشهيرة مثل آل أقيت ومنهم أحمد بن عمر أقيت (توفى ٩٤٢هـ) الذى حج ولقي السيوطي (٨٩٢هـ)، وكذلك الفقيه الصنهاجي الأكدي، العاقب بن عبد الله الأنصمني الذى زار السيوطي. والملاحظ أن الإمام الجلال السيوطي أصبح في حياته أهم روافد الفقه الأزهري لعلماء الغرب الإفريقي، أو كما قال الدكتور حماه الله ولد السالم: "ويبقى السيوطي هنا تميزاً بكونه ظل يمثل مرجعاً خاصاً للقادة الزمنيين السودانيين والصنهاجيين – يقصد الملوك – إلى جانب صلته بمواطنيهم من الفقهاء والأعيان، وهو مستوى من العلاقة لم يحدث – على حد علمنا – بين نخب سودانية ومصرية أخرى، وكان فقهاء هذه البلاد يعتبرون السيوطى ولياً كامل الولاية يتبرك بزيارته. وأيضاً هذه المكانة اكتسبها – وإن كانت أقل درجة – عدد من فقهاء الأزهر منهم الزبيدي.

ويذهبُ الدكتورُ يحيى ولد البراء [1] إلى أنَّ المذهبَ المالكى المتعبد به فى هذه البلاد قد انْطبَع بميزتين بنيويتين، إحداهما الطبيعة البدوية .كما امتاز ببروز

(1) ورقة بحثية بعنوان" الشيخ سيدى باب بن الشيخ سيديّ محمد وفقهه – رجعة إلى مسألتى الاجتهاد والإمامة –أعمال ندوة بوتمليت (إحدى مدن موريتانيا ١٢٠كم جنوب شرق نواكشوط)، تحت عنوان" الشيخ سيديّ الموروث الثقافى والأدبى، ١٨–١٩ فبراير٢٠٠٦، جمعة أحمد ولد هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، ..٢٠١١

مدرستين داخله، إحداهما المدرسة المصرية من الأجاهرة أو الأزاهرة التى قويت ابتداء من القرن العاشر الهجرى.[١] الأوائل من أكابر ممثليها .وعلى ذلك، فإن الصلة والاتصال بالأفق المعرفى المصرى نتيجة الحج كان له الدور الهام فى تجذير الإسلام فى بلاد الغرب الإفريقى المسلمة جميعها .

بَلْ إنَّ بعضَ وجوه العصر من العلماء المصريين كالسيوطى والبكرى كانوا يُعدّون أولياءً يتبرك بهم . وعليهم يُطرح كلُّ أمرٍ جلل من أمور قُطر التكرور مما جعلَ – مثلا – محمد بن محمد بن على اللمتونى يستعين بالإمام السيوطى لتوضيح بعض المسائل الفقهية التى أشكلت عليهم [٢] .

ولم تكنْ مراسلةُ السيوطي بدعاً في علاقة هذا الفقيه المصري ذائع الصيت بالعلماء الشناقطة ولا إخوانهم من أعلامِ نخبة الغرب الإفريقي المُسلم، وكذلك الملوك ومنها رسالته – التى أوردها الشيخُ عثمان فى مخطوطاته [٣] إلى ملوكِ السودان الغربي خصوصا" محمد بن سطفن "ملك" أكدز "وأخويه" محمد وعمر "وابن اختهم "محمد بن عبد الرحمن "و"إبرايم سورا" "ملك كاسنة".

وكان الأزهرُ فى ذلك الوقت قد أصبحَ منارة العالم الإسلامي وغرب إفريقيا، وضم فى صحنه وأروقته طلاب العلم والفقه من جميع الأقطار الإسلامية، وكان للتكارنة أو التكرور رواقهم مثل رواق سنار ورواق المغاربة وغيرها من الأروقة[٤] .

وكان الطابعُ العام للثقافة النخبوية فى الغرب الإفريقي خلال القرن الثانى عشر، هو الفقه بإجازات الأزهر . وكان طلاب العلم والفقه من بلاد التكرور وشنقيط

---

(١) المحاضر هى الجامعات الأهلية فى غرب إفريقيا وجنوب الصحراء الكبرى، وهى تشبه" الكتاتيب "فى مصر، وإن كانت الدراسة فيها تتسع لكل علوم الفقه والقرآن ولا تقتصر على سن الطفولة والصبا فقط .

(٢) الرسالة معنونة بـ" مطلب الجواب بفصل الخطاب"، ضمنها السيوطى مع أجوبته عليها أحد مؤلفاته تحت عنوان" رسائل من التكرور"، وهى عبارة عن أكثر من٥٠ سؤالا وأجوبتها(الحاوى للفتاوى)، إصدار دار الفكر، بيروت.

(٣) عثمان بن فودى :مخطوط "أسانيد الفقير المعترف بالعجز والتقصير " ورقة رقم ٩ .

(٤) د. عبد العزيز محمد الشناوى ،الأزهر جامعاً وجامعة .الجزء الأول .ص ٢٣٨ . سلسلة مكتبة الأسرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ٢٠١٣م .

يجتهدون فى الحصول على إجازات علمائه .[2] وعُرف عن علماء الأزهر نشاط مبهر في علم الحديث من خلال المؤلفات الأساسية التي ظهرت وبشكل خاص مؤلفات الزبيدي[3] الذى عُد كواحدٍ منْ أبرز محدثي عصره، ومثّل محطة شبه إجبارية في طريق الحُجَّاج المغاربة والأفارقة . وعظمت صلات الزبيدي مَعَ علماء غرب إفريقيا منْ خلال الاستجازة والتبرك، حيثُ اعتقدوا في الرجل الولاية الكاملة كشفاً صريحاً وإخباراً بالمجهول زواره وهي أمورٌ أجملها عبدُ الرحمن الجبرتي في نصٍ شهير له عنْ الزبيدي بقوله: "وصار له عند أهل المغرب شهرةٌ عظيمةٌ ومنزلةٌ كبيرةٌ واعتقادٌ زائدٌ وربما اعتقدوا فيه القطبانية العظمى، حتَّى إنَّ أحدهم إذا وَرَدَ على مصر حاجاً ولم يزرْه ولم يصلْه بشيء لا يكون حجه كاملاً، ويلتمسون منْه الأجوبة فمنْ ظفر منْهم بقطعة ورق ولوْ بمقدار الأنملة، فكأنَّما ظفر بحق الخاتمة وحفظها معه كالتميمة، ويرى أنَّه قد قُبل حجه."[4]

وكانتْ هناك صلة صوفية وفكرية بيْن الإمامين السيوطى والمغيلى[١] ـ حسبَ ما ذهب الباحثون – بحكم المنزع الصوفى الواحد (الطريقة الشاذلية[١])، وبحكم

---

[2] أيمن السيسى، الفكر الدينى للشيخ عثمان بن فودى، رسالة ماجستير، ٢٠١٤، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، القاهرة، ص٥٨.

[3] الزبيدى :محمد بن محمد بن محمد مرتضى الحسينى الزبيدى المتوفى فى١٢١٢هـ، أصله هندى من بلجرام ومنها انتقل إلى زبيد باليمن وسافر إلى القاهرة عام ١١٦٧هـ، وتعلم فى الأزهر وتفقه وصار له شهرة عظيمة كمتحدث ولغوى.وعُد أبرز المحدثين بعد ابن حجر العسقلانى، وقيل هو أعظم وأوسع اطلاعا .ويتمثل تجديد الزبيدى فى مباحث الحديث انتهاكه طرقا جديدة لتدريس متونه التى كانت متداولة فى عصره، فانتقل بها من طور الرواية إلى دور الدراية على حد تعبير الجبرتى .

[4] وإن كان الجبرتى يُلمح تلميحا إلى شكل من الاستغلال عند الزبيدى لتأكيد الكشف عنه وقطبا نيته، فهذا أمر آخر، ولكن ما يهمنا هنا هو حجم العلاقة الكبيرة من خلال الأعداد الوافدة عليه مما يؤكد لنا كون الفقه المصرى أحد مصادر العلم فى الفضاء الثقافى الإفريقى، وحصل منه على إجازات الزبيدى وغيره من المحدثين والفقهاء المصريين صارت من الأسانيد العالية المرغوبة، ومنهم أحمد بن عبد الرحمن أبى نعامة التواتى الملقب بالبكاى، وهو من أصحاب التأثير فى المدى الجغرافى لبلاد الهوسا والتكرور، الذى كاتب الزبيدى وعقد معه عقد الأخوة والمحبة، ثم حصل منه على الإجازة وقرأ عليه هو وكثير غيره من الكثناوين فى إقليم الهوسا.

(١) محمد بن عبد الكريم المغيلى لم تر بلاد السودان الغربى مثله فى العلم والفضل ،كانت له مكانة كبيرة ،وقع له مع جلال السيوطى مراجعات بشأن المنطق نظماً ونثراً وقد أورد الدكتور حسن عيسى عبد الظاهر فى كتابه

المعاصرة .وكانتْ لهما مراسلات ومشاعرات بينهما، فقد صنَّف السيوطى فى تحريم المنطق وردَّ عليه المغيلى بأبياتٍ شعرية يتبعُ فيها السيوطى فى تحريمه للمنطق وألف فيه المغيلى رجزاً مشهوراً كان رائجاً فى المدارس الصحراوية السودانية.

وممَّا يؤكدُ الحضور القوى للإمام السيوطى (توفى ٩١١هـ /١٥٠٥م) فى بلاد الغرب السودانى وشنقيط ما ظنَّه بعضُ الباحثين أوْ ادَّعوه، أنَّ الرجلَ قد زار بلاد التكرو، وهو ما لم يحدث.

نتائج البحث:

خلص البحث إلى النتائج التالية:

١-ساهم الحج في نشأة وتطور وازدهار مدن العلم أطلق عليها الدارسون والرحالة (مدن قوافل).

٢-الفائض النقدي وراجت حركة الشراء فألهبت أسعار الكتب الحماس للعلم، خصوصاً أن هذه القوافل كانت دائماً ما تحمل مع تجارتها من التوابل والذهب والملح طلاب العلم والفقهاء والحجاج، فكان ليسر الوصول إليها مع القوافل سهما كبيراً في ازدهارها الفقهي.

٣-النفوذ الروحي لقوافل الحجاج في غرب إفريقيا ساهم بالتحالف على نشأة بعض الامارات الإسلامية.

٤-لعبت قوافل الحج دوراً في تعريب لسان سكان الصحراء.

٥-للحج وطرقه دور فاعل على تأكيد النسب.

"الدعوة الإسلامية فى غرب إفريقيا"عند ذكره لمملكة "كانو"أن السيوطى قد حضر إليها من مصر وكان له فيها شأن كبير وإن كان الباحث يطمئن الى رأى الدكتور حماه الله ولد السالم.

(١) تغلغلت الشاذلية مع (سيدى) يحيى التادلسى فى جنوب الصحراء وبلاد شنقيط خلال القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى وكان قد تلقاها عن شيخه أحمد الزروق فحملها فى ثنايا قلبه وعلى لسانه الى تمبكتو التى كانت مقره الأخير وعمل إماماً لمسجدها فأصبح بمثابة جامعة ومنارة للمسلمين يضارع "القرويين فى الزيتونة" ومؤخراً تعرض جزء من سوره خصوصا الجانب الغربى للهدم من قبل حركة أنصار الدين بحجة محاربة الوثنية حيث كان الناس يعتقدون أن بابه إذا فتح قامت القيامة .

المصادر والمراجع:

- ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان
- عباس الجرارى، أسباب انتشار المذهب المالكى بالمغرب، ندوة الإمام مالك، وزارة الأوقاف المغربية، الرباط، ١٩٨٠.
- عبد الله بن محمد الصغير (ابن أمبوجه)، فتح الرب الغفور فى ذكر تواريخ الدهور، تحقيق: محمد الأمين ولد سيد المختار، كلية الآداب، نواكشوط، ١٩٩٥.
- د.أحمد ولد أيدة الهلال، تجارة القوافل، نواكشوط، ٢٠١٤
- التكملة فى تاريخ إمارتى التوارزة والبراكنة، تحقيق: أحمد بن الحسن، منشورات بيت الحكمة، تونس، ١٩٨٦، ص٨٥.
- عبد الودود ولد انتهاه، نزهة الأخبار فى الغامض من الحروب والأخبار، مخطوط: نسخة السيد محمد مولود ولد السالم الأمين.
- [2] د. حماه الله ولد السالم، حوار المركز والأطراف فى الثقافة العربية، إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة.
- الطالب أحمد، تاريخ ابن أطوير الجنة، تحقيق: سيد أحمد بن أحمد سالم، الرباط، ١٩٩٥.
- عصمت عبد اللطيف دندش، دور الرابطين فى نشر الإسلام فى غرب إفريقيا، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ١٩٨٨.
- عبد الودود ولد عبد الله، الحركة الفكرية فى بلاد شنقيط حتى نهاية القرن الثانى عشر، مركز الدراسات الصحراوية، نواكشوط، ٢٠١٥.
- مؤلف مجهول، مطرب العباد تُرجم إلى الفرنسية بواسطة الضابط الفرنسى كادان فى مطلع القرن العشرين، أحمد مولود ولد أيده، مدن موريتانيا العتيقة.
- المصطفى بن أحمدان، مساهمة فى كتابه تاريخ ودان منذ نشأتها وحتى القرن ١٨، نشر خاص، نواكشوط، ١٩٨٥.
- المصدر السابق.
- محمد فال ولد بابه، التكملة فى تاريخ موريتانيا، تحقيق أحمد بن الحسن، بيت الحكمة، تونس، ١٩٩٢.
- أحمد مولود ولد أيده الهلال، مدن موريتانيا العتيقة، مركز الدراسات الصحراوية، نواكشوط، ٢٠١٤.
- ددود عبد الودود بن عبد الله، الإسلام والمجتمع فى إفريقيا الغربية.
- عبد الرحمن السعدى، تاريخ السودان، دار الفكر العربى، ٢٠١١، تحقيق حماه الله ولد السالم.
- عبد الودود ولد الشيخ، القرابة والسلطة، قراءة فى النظرية الإنقسامية، جامعة نواكشوط، ١٩٩٥.

- يحيى ولد البراء، المحتوى الاجتماعى لفتاوى العلك، حوليات كلية الآداب، جامعة نواكشوط، العدد ٣، العام ٩١-١٩٩٢.
- الإسلام والمجتمع فى إفريقيا الغربية خلال القرنين ١٨/١٧ للميلاد، حوليات كلية الآداب، جامعة نواكشوط، العدد الثانى، ١٩٩٠.
- أحمد بن عرفة التكرورى، العرف المشهور فى حجاج بلاد التكرور، مطبعة الخانجى، ١٣١٤هـ، القاهرة.
- ابن بطوطة.
- عبد الودود ولد الشيخ، القرابة والسلطة، قراءة نقدية فى النظرية الإنقسامية، حوليات كلية الآداب، جامعة نواكشوط، العدد ٣.
- أحمد حسن التوانى، الإمارات والمجال الأميرى البيضانى، حوليات كلية الآداب، جامعة نواكشوط، العدد ٣، ١٩٩٠.
- ابن حامد، الحياة فى موريتانيا، الديوان المجموع.
- د. أحمد ولد أيده الهلال، مدن موريتانيا،.
- محمد صالح ولد عبد الوهاب، الحسوة البسيانية فى معرفة الأنساب الحسانية، جامعة نواكشوط، ١٩٨٩، ص٩٥، تحقيق: د. محمد ولد أحمد البرناوى.
- أيمن السيسى، حكايات الصحراء، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة إصدارات خاصة، القاهرة، ٢٠١٣.
- محمد محمد الشيخ الأنصارى . بعض علماء وأعيان الأنصار بصحراء تمبكتو ٢٠١١، دون ذكر بلد الطبع أو الناشر ص ٢٠٨.
- أيمن السيسى، الجارة، الأهرام، ٩ يوليو، ٢٠٠٩.
- نشرت عدة موضوعات عن الواحة وتكررت زياراتى لها ومن حسن الحظ أنى احتفظت فى أرشيفى بحديث الشيخ حسن خليفة، مما لم يكن مناسبا نشره حيث نحوت فى التحقيق إلى الجانب التنموى فى الواحة ، وعندما أهدانى الزميل عكرمة الأنصارى بعض الكتب عن قبيلتهم أثناء إعدادى لهذا الكتاب ربطت ما جاء بها مع موقع الجارة ومقام سيدى عبد الله، وما حكى لى شيخها عنه وعن سيدى ياجا فعدت إلى الأرشيف لربط الوقائع.
- ددود بن عبد الله: الإسلام والمجتمع فى إفريقيا الغربية خلال القرنين ١٧، ١٨، حوليات كلية الآداب، جامعة نواكشوط، العدد ٣، ١٩٩٠.
- محمد المامى، البادية، تحقيق د. محمد ولد البرناوى، زاوية الشيخ المامى، نواكشوط، ٢٠١١.
- حاشية الدسوقى على الشرح الكبير للدرير، دار الفكر، بيروت، ج٤، ص٢٨٣.

- د .حماه الله ولد السالم "حوار المركز والأطراف فى الثقافة العربية وبلاد شنقيط فى الذاكرة العربية العالمة" نموذجا"،ص ١٣٣ ، إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، ٢٠٠٤م،.
- عبد الرحمن زكى :الإسلام والمسلمون فى غرب إفريقيا ص ١٥٣ . القاهرة ١٩٦٥ .
- عبد الرحمن السعدى، تاريخ السودان، تحقيق د. حماه ولد السالم.
- أحمد سعيد كلادنت حركة اللغة العربية وآدابها فى نيجيريا . ص ١٦٣ . دار المعارف . القاهرة ١٩٨٢ .
- الحسن الوزان وصف إفريقيا . طبعة الرياض
- محمود كعت، تاريخ السودان، تحقيق حماه الله ولد السالم.
- ك مادهو بانيكار . ترجمة وتعليق أحمد فؤاد بلبع ،المشروع القومى للترجمة . المجلس الأعلى للثقافة . القاهرة ١٩٥٨م .
- أيمن السيسى :"الفكر الدينى لعثمان بن فودى من خلال مخطوطاته" . رسالة ماجستير . معهد البحوث والدراسات الإفريقية . جامعة القاهرة.
- ورقة بحثية بعنوان" الشيخ سيدى باب بن الشيخ سيدىّ محمد وفقهه – رجعة إلى مسألتى الاجتهاد والإمامة – أعمال ندوة بوتمليت (إحدى مدن موريتانيا ١٢٠كم جنوب شرق نواكشوط)، تحت عنوان" الشيخ سيدىّ الموروث الثقافى والأدبى، ١٨-١٩ فبراير٢٠٠٦، جمعة أحمد ولد هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١١..
- الرسالة معنونة بـ" مطلب الجواب بفصل الخطاب"، ضمنها السيوطى مع أجوبته عليها أحد مؤلفاته تحت عنوان" رسائل من التكرور"، وهى عبارة عن أكثر من٥٠ سؤالا وأجوبتها(الحاوى للفتاوى)، إصدار دار الفكر، بيروت.
- عثمان بن فودى :مخطوط "أسانيد الفقير المعترف بالعجز والتقصير " ورقة رقم ٩ .
- د. عبد العزيز محمد الشناوى ،الأزهر جامعاً وجامعة .الجزء الأول .. سلسلة مكتبة الأسرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ٢٠١٣م .
- أيمن السيسى، الفكر الدينى للشيخ عثمان بن فودى، رسالة ماجستير، ٢٠١٤، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، القاهرة، ص٥٨.